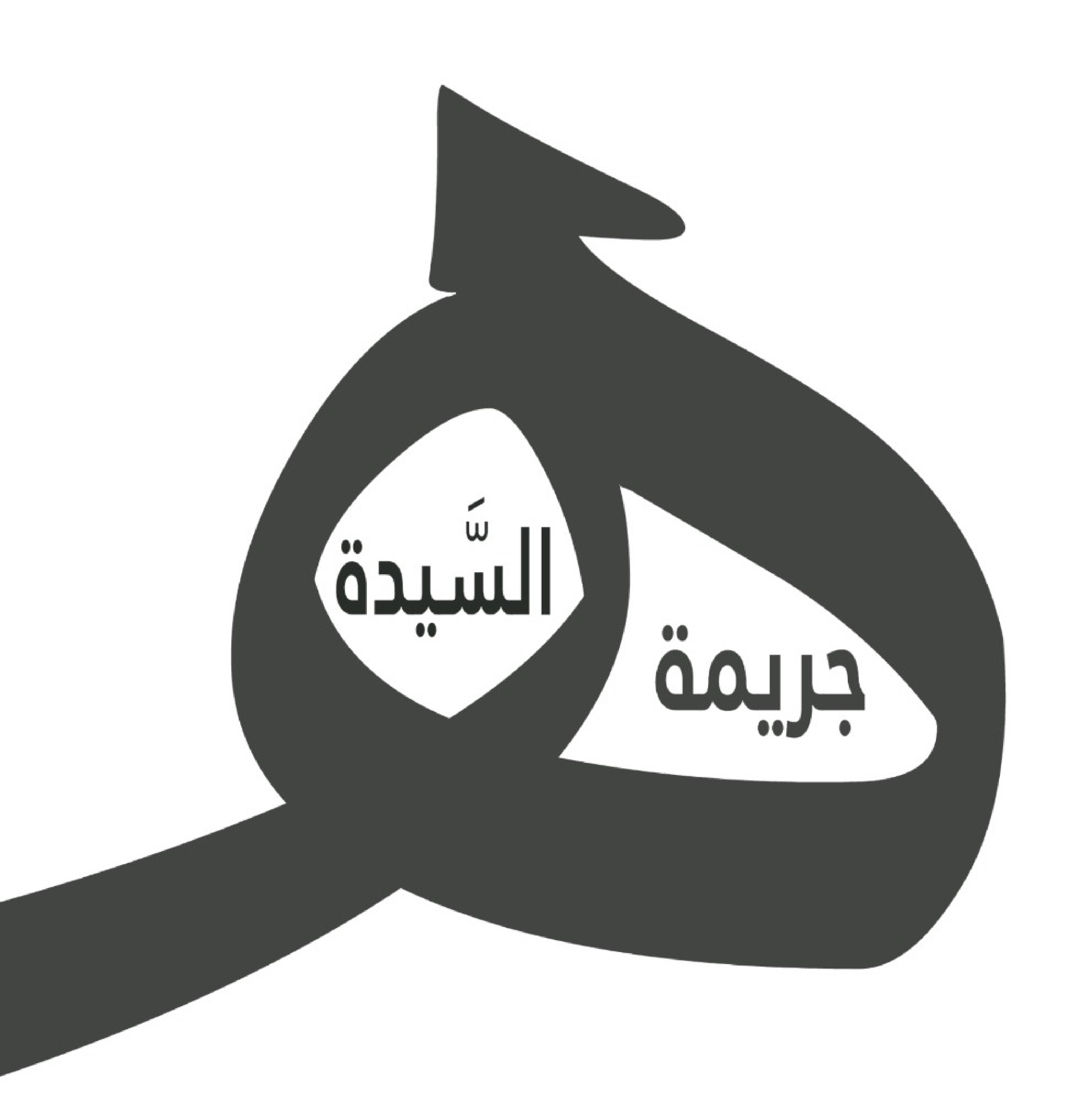
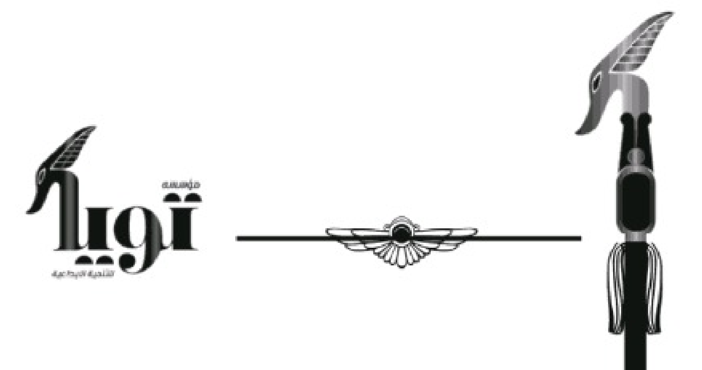

جريمة
السَّيدة



اسـم الكتـــاب	جريمة السيدة هـ
اسـم الكاتـــب	نهى داود
رقـم الإيـــداع	٢٠٢١/٢٣١٩٥
الترقيـــم الدولـي	978-977 -6739-37-7
المراجعــة اللغـويـة	عبد الهادي عباس
الإخـراج الفنـــي	ضياء فريد
تصميـــم الغـــلاف	Marklinica Agency
رئيس مجلس الإدارة	شريف الليثي

+201110102010

dartoya2015@gmail.com

dar.toya

٦ (أ) شارع فلسطين - المعادي الجديدة - القاهرة

dar.toya

@dar_toya

جريمة السَّيدة

رواية

نهى داود

إهداء

إلى تلك الأحلام التي تقضُّ مضاجعنا...

وتكون حيَّة في الأذهان،

فإذا ما شرعنا في الحكي عنها،

بهتت وتسربت من الوجدان.

1

ظُهر الخميس

وقفتْ هاجر بقلبٍ مرتعب، وقدمين مرتعشتين، وقد تجمَّدت على جبهتها بضع حبَّاتٍ من العَرق البارد، تنتظر...

حدجها وكيلُ النيابة بنظرةٍ ما، ثم التفت إلى أمينة السر بجانبه قائلًا:

«اكتبي عندك... أمرت النيابة بحبس المتَّهمة هاجر حسن عفيفي أربعة أيام على ذمة القضية»!

وتهاوتْ هاجر أرضًا...



قبل يومين:

أطفأتْ هاجر حاسبها اللوحي، وانتظرتْ في شرودٍ حتى أظلمت شاشته، تأملت وجهها الذي انعكس على صفحة الشاشة السوداء، فلاحظت البثرة الصغيرة التي ظهرت أعلى خدها الأيمن، مذكرة إياها باقتراب موعد دورتها الشهرية. تنهدت، وذكَّرت نفسها بضرورة شراء فوط صحية مع طلبات الأسبوع. حاولت عبثًا دسَّ خصلات شعرها السوداء الناعمة إلى داخل الطرحة، تلك الخصلاتُ التي تُسميها هي: الخارجة عن القانون، بينما تنعتها جارتها: ضريبة الشَّعر الناعم.

بدأت تجمع أغراضَها استعدادًا للرحيل، اختلست نظرةً إلى ساعة هاتفها، لقد تجاوز الوقتُ منتصف الليل بعشر دقائق، لا بد أنهم ناموا جميعًا، فمكالمتها الأخيرة مع إبراهيم كانت منذ عدة ساعات.

اطمأنت منه أن حبيبة على جهاز البخار تستنشق منه رذاذ الدواء إلى رئتيها المتعبتين، كعادتها قبل النوم في ليالي الشتاء. بينما نعست زينة أمام الرسوم المتحركة.

لم ينس إبراهيم أن يُلقي على سمعها عتابه المعهود جرَّاء سهرها في العمل، فتلقَّت هي العتاب في صمتٍ.

خلال الأيام الفائتة، حاولت مرارًا أن تشرحَ له أهمية سهرها في حصولها على ترقيتها المُستحقة، والتي تأخرت بسبب إجازتي

الحمل ورعاية الطفل المتتاليتين، وأنها منذ عودتها إلى العمل منذ عدة أشهر تُحاول جاهدةً إثبات نفسها.

لكن اليوم... لم تشأ أن تُعيد كلماتها، أدركتْ أنها لن تؤثر في إبراهيم، بل هي تظنه لا يُبالي، بيد أن وصلة العتاب تبدو كإجراء روتيني مستحقٍّ لكرامته الرجولية المجروحة من زوجته التي تترك له البنتين وتتأخر في العمل كل مساء.

ابتسمت وهي تضعُ هاتفها المحمول في حقيبتها، فلولا ضعفُ الإرسال داخل مكاتب الوزارة لأتتها مكالمةٌ كل خمس دقائق من البنات أو أبيهم، أما الآن فهي المتحكِّمة في الاتصالات، تخرج لتجريها كل فترةٍ من شرفة المبنى.

❋

خرجت هاجر من غرفةِ المكتب عابرةً الممر الطويل باتجاه الباب الرئيسي للخروج. شعرت برغبتها في التبوُّل، فاتجهت نحو دورة المياه ثم تذكَّرت أنها تُغلق في العاشرة مساء، موعد رحيل آخر عمال النظافة. فكرت في الصعود إلى الدور الثالث واستخدام دورة المياه المجاورة لمكتب الوزير، ولكنها استثقلت الفكرة، فقررت تجاهل نداء الطبيعة مؤقتًا على أن تلبيه فور وصولها إلى المنزل، واتجهت صوب الباب الرئيسي.

واصلتْ مثانتها الإلحاح، فأدركتْ بعد عدة خطواتٍ أنها لن تستطيعَ الانتظار حتى الوصول إلى البيت. تلفتت حولها مترددةً بين

المضي قدمًا أو العودة إلى الداخل، لاحظت الدرج عن يمينها والذي يُفضي إلى المرآب، وتذكَّرت أن دورة المياه الموجودة به لا تُغلق.

نزلت مسرعةً حتى وصلت إلى المساحة الرمادية الشاسعة، التي أصبحت فارغة إثر رحيل المديرين بسياراتهم. فالمديرون فقط هم المسموح لهم باستخدام المرآب. أما الموظفون، فعليهم البحثُ عن أماكنَ مستحيلةٍ لصفِّ سياراتهم في الشوارع الجانبية المحيطة بمبنى الوزارة القابع بين شارعيْ فيصل والهرم.

لم تكن تُضيء المرآب سوى بضعة مصابيح نيون متناثرةٍ على السقف وسط شبكة الأنابيب العملاقة الممتدة عليه، فبدا شاحبًا مهجورًا.

توجَّهت هاجر نحو دورة المياه الصغيرة التي ترتفع بضع درجات إسمنتية عن الأرض، رأت عبير تسبقها لتدفعَ بابها بيدٍ وبالأخرى تجرُّ ابنتها الصغيرة. أدركت هاجر أنها ستضطر للانتظار بضع دقائق إضافية.

كانت هاجر دائمًا ما تشعر بالتعاطف تجاه عبير، مرددةً أن جمالها خسارةٌ في مهنتها كعاملة نظافة بالوزارة، إذ كانت عبير ذات وجهٍ خمري وعينين عسليتين واسعتين وفم مكتنز مشرَّب بحمرة طبيعية، وشعر كستنائي تظهر خصلاته الناعمة خارج طرحتها غير المُحكمة.

كانت باختصار، فاتنة...

وكانت فتنتها طاغية، سواء في الزي الأزرق الخاص بعاملات النظافة، أو في تنورتها السوداء الضيقة والقميص الحريري الملون الذي اعتادت ارتداءه عليها، والذي كان يُبرز جمالها وقوامها الملفوف.

اعتادت عبير أن تحكي للموظفات في أريحية عن الخُطَّاب الذين يطرقون بابها: الميكانيكي، والسبَّاك وسائق التوكتوك؛ وكيف رفضتهم جميعًا بانتظار الشاب المتعلِّم الوسيم الذي يليق بجمالها، والذي سينتشلها من حياتها ويرتقي بها.

دارت الأيام، ولم يأت فارس الأحلام، حتى تفاجأت هاجر أثناء إجازة وضعها الأخيرة، أن عبير قد تزوَّجت من عطية، عامل البوفيه الذي يكبرها بعشرين عامًا، ورُزقت منه بصابرين؛ الطفلة التي ورثت فتنة أمها ولم تكد تبلغ العامين بعد.

وعندما عادت هاجر من إجازتها مؤخرًا، هالها مرأى عبير؛ لم تُصدق أن بضع سنوات استطاعت سحب حيويتها وجمالها بهذا الشكل.



تأخّرت عبير بابنتها الصغيرة في الحمَّام، وبدأت هاجر تشعر بالبرد وإلحاح المثانة المتزايد.

قامت بتحريك قدميْها قليلا طلبا للدفء والإلهاء، خطوة إلى اليمين، وخطوة إلى اليسار. تسارعت خطواتها حتى وجدت نفسها

تلف وتدور في بطءٍ، وتنُّورتها السوداء الواسعة ترتفع عن الأرض من حولها.

انتشاءٌ مريحٌ دغدغ مشاعرها إثر صوت حفيف تنورتها، فزادت من سرعتها في الدوران حتى كادت التنورة تُحاذي ذراعيها المفرودتين، في مشهدٍ أقرب للدراويش.

كانت مغرمةً منذ طفولتها بالتنورات الواسعة المنفوشة، خاصة تلك التي كانت ترتديها الفنانة ماجدة، وتتهادى بها في مشيتها فتتأرجح معها التنورة، ترتفع إلى الأمام، ثم إلى الوراء، في حركةٍ كلها دلالٌ وأنوثة.

لا تتذكر أنها اقتنت في طفولتها تنورةً مماثلةً، عدا تلك التي أهدتها بها خالتها، كانت واسعة جدًّا، تلف بها وتلف، ولكنها لم تكن منفوشة، كانت تنقصها (الجيبونة).

ظلَّت تنورة ماجدة حلمًا يسكن وجدانها، حتى رأت تنورةً سوداء واسعةً في الواجهة الزجاجية لأحد المحلات.

فُتنت بها من أول نظرة...

تفصيلتها (الكلوش) الضيقة من عند الوسط، والتي تتسع كثيرًا كلما اقتربت من الأرض، وقماشتها المُتماسكة الغنية، وثنياتها اللولبية الكثيرة التي عوَّضت عن الجيبونة وجعلتها منفوشةً بما يكفي. وبرغم إدراكها بأن ذلك الموديل لم يعد يُناسب قوامها الذي امتلأ نصفه السفلي بعد الولادة والإقامة بالمنزل، فإنها لم تستطع مقاومة اقتنائها.

نظرت لقصاصة السعر، نصف راتبها بالتمام والكمال، عضَّت على شفتيها وأشاحت ببصرها.

همَّت بالذهاب، لولا أنْ تذكرت ماجدة، والمرَّات التي لا حصر لها التي حاولت فيها تقليدها بتنورةٍ غير مناسبة، فدخلت المحل، واشترتها.

وها هي ذي اليوم، بتنُّورتها المُشرعة حولها، تلف وتدور كطفلةٍ في الخامسة.



لمحت هاجر شخصًا يتحرَّك في نهاية المرآب، فبدأت تُهدئ من حركتها وهي تحمد الله على برد الصباح الذي جعلها ترتدي جواربها السوداء السميكة، فحتى وإن بدت عبيطة في دورانها، إلا أنها على الأقل مستورة.

اقترب الشبح، فميَّزت فيه هاني زميلها، كان يقترب منها بسرعةٍ، جاهدت أن تتفاداه، فتعثرت ووقعت إثر الدوار المفاجئ الذي اكتنفها بسبب الدوران.

حاول هاني تجنب الوقوع فوقها، فوقع بجوارها تمامًا، وفي حركةٍ مفاجئةٍ لفَّ ذراعه حولها!

2

الفتنة!

«آسفة»!

«أنا اللي آسف، شفتك من بعيد بتلفِّي، افتكرتك دايخة وجيت ألحقك».

حاولت هاجر الوقوف، وكان هاني يُحاول مساعدتها بذراعه الملتفة حولها.. لمساته كانت غريبة.

كانت أقرب للاحتضان!

حاولت هاجر التملُّص منه، فخفَّف من قبضته ليسندها حتى قامت، ثم لم يُفلتها.

تسارعت دقاتُ قلبها...

ماذا يريد؟

لقد كانت أمامه سنة بأكملها قبل أن ترتبط، وبرغم التقارب الذي نما بينهما، فإنه لم يتقدم نحوها بأية خطوة جدية؛ حتى عندما خُطبت لإبراهيم، لمَّح لها بغضبه، ولكنه لم يُصارحها بأي شيء، ولم يطلب منها أي شيء.

انتبهت هاجر من أفكارها على قبضة هاني التي ازدادت شدَّتها على كتفها.

أرادت أن تتفلَّت منه، ولكن شعورًا بالخدر اللذيذ كبَّلها.

وجدت نفسها تزدرد ريقها الجاف وتهمس له:

«أنا متجوزة».

لم يبد على هاني أنه سمعها، فكرَّرت بصوتٍ أعلى:

«أنا متجوزة يا هاني».

اتسعت ابتسامته، وهو يرفع بيده اليسرى في بطء خصلة من شعره الأسود الفاحم تدلَّت على وجهه، بينما ظلَّ ساعده الأيمن محاوطا كتفيها.

شعر بها تلين تحت ضغطته فخفف قبضته عنها قليلا.

لم تتحرك...

سألها: «مروَّحة؟»

أومأت برأسها.

أمسك ذقنها في رفق، ورفع وجهها إليه قائلا:

«استنيني هاوصلك، لحد العربية يعني... بس ثواني هادخل الحمَّام وأرجعلك».

نظرت إليه... في عينيه...

نقطتي ضعفها اللتين حاولت تحاشيهما منذ عودتها من الإجازة، ولكن ها هي ذي قد فقدت حذرها ونظرت فيهما...

تاهت في زرقتهما اللجيَّة التي تفيض بالأسرار، وداخت مع الدوائر المعتمة التي تؤطرهما لتزداد زرقتهما حدة وعمقًا.

تلك النظرة، التي دفعت ثمنها غاليًا!



ابتسم هاني الذي يعلم تأثير نظراته جيدًا، وقال:

«مش هاتأخر، استنيني!»

ارتقى درجات دورة المياه ودفع بابها ودخل.

تيبَّست هاجر ولم تقو على الحراك.

خرجت عبير من حمَّام النساء تجرُّ ابنتها وراءها، نظرت إلى هاجر في فضول، تحاشت هاجر نظرتها فهزَّت عبير كتفيها وألقت عليها السلام بآليةٍ وهي تبتعد مع ابنتها حتى ابتلعهما ظلام المرآب.

تحركت هاجر نحو حمَّام النساء، توقفت بغتة عندما التقطت أذنها صوت أغنية ما، ميَّزت فيها رنة هاتف هاني، نظرت تلقائيا نحو باب حمَّام الرجال الموارب فلمحت في مرآته الظاهرة انعكاس هاني، راقبته وهو يصفف بعنايةٍ شعره المموج الذي يصل إلى كتفيه بواسطة مشط بلاستيكي صغير، ثم يبخ على نفسه عدة بخات من زجاجة عطره.

كان يبدو وكأنه يستعد،

يستعد لـ...

3

ليلة لا تنتهي

لم تشعر هاجر بنفسها إلا وهي خارج المبنى تنهج بشدةٍ وقد أحنت هامتها وسندت بكفَّيها على ركبتيها، بينما تصرخ رئتاها طلبًا للهواء.

تيارات الهواء البارد التي لفحت وجهها، جعلت إدراكها للواقع من حولها يعود إليها.

رفعت رأسها ونظرت إلى السماء، إلى النجوم من فوقها وتمتمت:

«الحمد لله»

لم تقو على الوقوف فجلست على أقرب رصيف.

نظرت نحو سيارتها الصغيرة القابعة وحيدةً في الشارع الجانبي بعد أن رحلت عنها السيارات الأخرى، حاولت النهوض إليها فارتعشت قدماها من تحتها، وتهاوى جسدها على الرصيف ثانية.

أرادت الهروب قبل أن يلحقَ بها هاني، ولكنها لم تقو على الوقوف، وعلمت أنها لن تقوى على القيادة كذلك، كما أدركت أنها لن تستطيع مواجهة إبراهيم بقواها الخائرة تلك وارتباكها البادي للعيان.

ظلت هاجر على الرصيف حتى انتظمت أنفاسُها وصفا تفكيرها، أخرجت هاتفها لتجد الساعة قد اقتربت من الواحدة بعد منتصف الليل فقررت العودة إلى مكتبها تحتمي به حتى الصباح.

سوف ترتجل أية حجة لإبراهيم، المهم الآن الاحتماء بين أربعة جدران وباب، من هاني، ومن نفسها.

توجهت ببطء نحو المدخل الرئيسيِّ للوزارة، فحيَّاها الحارس متسائلا:

«خير يا مدام هاجر؟ نسيتي حاجة ولا إيه؟»

«لا يا عم عبد الله... آآآ العربية مارضيتش تدور».

«أكيد البطارية، هنلاقي مين يقومهالك دلوقت؟»

«لا مش مشكلة، أنا هاستنى في المكتب للصبح».

ثم ولَّت من أمامه قبل أن يقول المزيد.

✵

وجدت هاجر الممر إلى مكتبها مظلمًا بعد أن رحل الجميع، فأضاءت كشَّاف هاتفها المحمول وعبرته مسرعةً، حتى دلفت إلى مكتبها لاهثة. أغلقت الباب من ورائها وأبقت على الغرفة مظلمة.

وضعت حقيبتها ورمت بجسدها على المقعد الدوار، أخذت تلفُّ به يمينًا ويسارًا علَّها تتخلص من توترها، ولكن هيهات، ظلت الأفكار تحاصرها، وتتكالب عليها.

ماذا ستقول لإبراهيم؟ كيف ستنام هنا؟ ماذا لو عرف هاني أنها مختبئة في المكتب؟

قررت قراءة بضع آيات من القرآن علها تهدأ، فتحت ذلك التطبيق الموجود على هاتفها والذي حمَّلته عليه منذ شهور، ثم لم تستعمله أبدًا، ولكنها أبقت عليه رغم صراخ هاتفها من قلة المساحة، ورفضت حذفه في كل مرة اقترح عليها هاتفها ذلك كأول خيارات الحذف باعتباره تطبيقا لم يُستخدم.

اختارت سورة يوسف، علها تُذهب وحشة قلبها وتُطمئن روحها المُتعبة.

بدأت بالقراءة، الآية تلو الآية، حتى قرأت:

{ولقد همَّت به وهمَّ بها، لولا أن رأى برهان ربه}

فرأت هي نفسها، وانفجرت في البكاء.

بكاء حارق، انهمرت فيه دموعها ساخنةً ملتهبةً...

بكت كما لم تبكِ من قبل، حتى بدا لها أنها فقدت كل ما يحتويه جسدها من الماء دموعا.



كفكفت دموعها أخيرًا، وقررت إرسال رسالة نصية لإبراهيم. طالعها وجهه مع البنات في صورة خلفية الهاتف، تأملت عينيه السمحتين وابتسامته الطيبة، فانهمرت دموعها من جديدٍ، وشرعت في كتابة الرسالة وهي لا تكاد ترى الحروف من وسط دموعها.

كتبت له أن السيارة أبت أن تدور وأنها ستقضي الليل في الوزارة حتى الصباح. داست على أيقونة الإرسال وقلبها يرتجف خوفا من رد الفعل الذي توقَّعت أن يأتي عاصفًا بلا ريب.

مثانتها ستنفجر.

ماذا تفعل؟

لن تخرج من المكتب وإن اضطرت لإفراغها على أرض الغرفة.

أخذت أنفاسًا عميقة علَّها تُخفف من احتقان جسدها، ثم بدأت في العد بالعكس حتى تصرف ذهنها عن إلحاح مثانتها...

٩٩، ٩٨، ٩٧...

تراجعت المثانة قليلا عن ضغطها وكأنما استجابت لمحنة صاحبتها، فقررت هاجر أن تستلقي على ظهرها أرضًا كي تخفف من قوة الجاذبية الأرضية عن السائل الأصفر المحتدم بداخلها.

تمدَّدت ووضعت حقيبتها تحت رأسها كوسادة، والتحفت بتنورتها الواسعة. أمسكت بهاتفها، كانت الساعة تقترب من الثانية، ضبطت المنبه على السادسة صباحا، أرادت أن تكون مستيقظة مع بزوغ الشمس، تحسُّبا لمن قد يظهر من الموظفين، هذا إذا استطاعت النوم!



لم تدر هاجر متى انزلقت إلى السبات، ولكنها استيقظت على صوت المنبه، أغلقته وقامت واقفة فوجدت عظامها كافة تئن، تحركت يمينًا ويسارًا، وفردت ذراعيْها وقدميْها وثنتها حتى عادت المرونة إلى مفاصلها.

كان الذهاب إلى دورة المياه ضرورة فورية، قررت استخدام دورة المياه بالطابق الثالث، فخرجت من المكتب باتجاه السلم.

أدركت بارتياح، شابه استغرابٌ خفيفٌ، أن هاني لم يُحاول ملاحقتها، أو حتى الاتصال بها، ولكنها تذكرت سوء الشبكة بداخل المكتب فحمدت الله. كانت تخشى أن يجد سيارتها ما زالت بالخارج فيعود للبحث عنها، ولكن يبدو أنه أدرك هو الآخر فداحة الموقف فتخلَّى عن مآربه.

أفرغت مثانتها وتوضأت وعدَّلت من ملابسها وحجابها، ثم عادت إلى المكتب فصلَّت ركعتي الفجر، ترددت قليلا، ثم أتبعتهما بركعتي السنة التي هجرتها سنين.

فتحت تطبيق المصحف لتقرأ بضع آيات.

بدأت من الفاتحة، معاهدة الله أن تلتزم بورد يوميٍّ من القرآن شكرًا له على ستره ولطفه عليها بالأمس.

ظنت أن الحكاية انتهت، ولم تكن تعلم...

أنها كانت البداية!



4

البلوفر البيج!

بزغت أشعة الشمس مبددةً الظلام، فزحف مزيدٌ من الاطمئنان إلى قلب هاجر.

لقد مرَّ الأمس وانتهى، وستمرُّ مكالمة إبراهيم أيضًا بسلام، وستعود هي إلى حياتها الروتينية راضية مرضية.

فتحت جهازها وشرعت في العمل عليه حتى اقتربت الساعة من السابعة، فخرجت إلى الشرفة كي تتيحَ لهاتفها أن يلتقط الشبكة، وما إن حدث حتى انهمرت عليها رسائل إبراهيم الغاضبة.

تردَّدت، ثم قررت أن تتصل به دون أن تقرأها، وما إن سمع صوتها حتى داهمها بسيلٍ من العبارات الغاضبة، أبعدت الهاتف قليلا عن أذنها حتى خفت صوته وهدأت نبرته فتكلمت هي، تمتمت بكلمات اعتذارٍ كثيرةٍ في هدوءٍ واستكانةٍ فاجأت إبراهيم نفسه. لم يكن يهمُّها أن تخرجَ من هذه المعركة مُنتصرة، ولم تكن تريد أن تقفَ عند كلماته القاسية، فقط كانت تريد أن يمر الموقف بأمان.

لم يجد إبراهيم بُدًّا أمام اعتذاراتها سوى أن يهدأ، وهو الذي أعدَّ نفسه لمناطحة طويلة الأمد. قالت له إنها ستهاتف تيتي جارتهما كي تصطحب البنات معها إلى الحضانة حيث تعمل، وأنها ستأخذ إذنًا وتعود إلى المنزل قبل موعد عودته لتعدَّ له صينية بطاطس بلحم الضأن وأرزًا بالشِّعرية.

تكلم الطعام، فلانت نبرة إبراهيم، وانتهت المكالمة بسلام.

عادت هاجر إلى المكتب، واستأنفت العمل دون أن تشعرَ بمرور الوقت حتى فتحت منار الباب ودخلت قائلةً:

«صباح الفل يا هجورة، أول مرة تيجي قبلي، خير؟»

ابتسمت هاجر في إرهاقٍ:

«أنا ما روَّحتش، بايتة هنا من إمبارح»..

«الله! ليه كده؟»

احتارت هاجر بما تُجيب منار، لن تستطيعَ البوْح بضعفها ذاك، حتى لمنار التي تثق بها وتحبُّها:

«العربية ما رضيتش تدور والوقت كان متأخر».

«يوووه إنت مش هتغيري العربية دي بقى».

«لما نخلص تشطيب الشقة وعليكي خير».

«مش إنت داخلة جمعية؟ ما تبيعي عربيتك وتحطي تمنها مع الجمعية مقدم».

«لاااا الجمعية علشان البيانو، مش هاتنازل المرة دي».

«والله كان المفروض حماكي يستجدع ويشطَّبلكم الشقة، اشمعنى طلعت»

«كتر خير إنه بناها لنا، وبعدين مش هو اللي شطب لطلعت على فكرة، طلعت اللي شطب على حسابه، بس هو ما شاء الله منجز، ونسرين برضه قديرة وبتعرف تزق وتخلَّص، مش زينا أنا وإبراهيم»..

«صحيح، إبراهيم عمل إيه لما عرف إنك بايتة ف الشغل؟»

غمزت لها هاجر قائلةً:

«قلتله هاعمله صينية البطاطس اللي بيحبها»

وضحكتا.



انضم إليهما عاطف، زميلهما في المكتب، وسأل:

«هو هاني اتأخر كده ليه؟»

«تلاقيه واخد إذن، مش كان سهران إمبارح ف الشغل؟» قالت منار، ثم نظرت تجاه هاجر قائلةً بحماسٍ:

«بأقولك إيه، أستاذ مرسي شكله مش جاي النهاردة، ما تيجي ناخد إذن ونطلع شوبنج»..

«ما تجيش ع الجرح بقى، أنا فعلا هاخد إذن، بس علشان أروح أعمل الأكل».

«طيب بُكرة؟»

«لا، بكرة إيه؟ أكيد هاضطر أسهر ف الشغل علشان أعوَّض إذن النهاردة، استني لما نخلص الميزانية ونفوق».

سكت الكلام، وانهمك كل من الزملاء الثلاثة في عمله، حتى دُفع الباب...

توتَّرت هاجر متوقَّعة دخول هاني، إلا أنها كانت عفاف، زميلتهم في المكتب المجاور، وكانت عيناها الواسعتان تلمعان بالإثارة وقد استهلَّتهم قائلةً بتلذذٍ:

«لقوا قتيل في الجراج»!

انتظرت عفاف حتى ترى أثر عبارتها عليهم، راقبت شهقة منار وقيام عاطف من مقعده كالملدوغ، ثم أردفت:

«بيقولوا الجمجمة متهشِّمة والدم مغرق الأرض، ده حتى البلوفر البيج بتاع القتيل بقى أحمر من كتر الدم»..

البلوفر البيج!

مرَّ بهاجر طيفٌ ما.

«إيه يا هاجر مال وشك اتخطف كده ليه؟ ما يبقاش قلبك خفيف»..

قالتها عفاف بجذل ثم توجَّهت نحو الباب قائلةً:

«أما أروح أجيبلكم بقية الأخبار»..

«خديني معاكي»، قالها عاطف وهو يتبعها مهرولًا.



5

الباب الحديدي

انتفضت هاجر على صوت طرقات على الباب الحديدي، الذي سرعان ما انفتح، وانبرى منه صوتُ أمين الشرطة الجهوري مناديًا:

«أمنية عامر... زيارة»!

انكمشت هاجر على نفسها في البقعة الصغيرة التي سمحوا لها بها من أرض غرفة الحجز، وطافت بها الذكريات...

اللحظات الضبابية التي تلت دخول عفاف الثاني عليهم...

الرنة المعدنية الباردة لارتطام أساورها الذهبية وهي تحرِّك ذراعيها في انفعالٍ معلنةً:

«طلعت جثة هاني...»!

الدوار الذي أصاب عقلها، ومذاق عصارة المعدة اللاذع الذي ارتفع إلى حلقها.

صرخة منار، ووجه عاطف الشاحب، وعينا علا الباكيتان، ونظرات سيِّد الضيقة، والتلذذ البادي على وجه عفاف البضِّ.

الهرج والمرج، ووقع الأقدام ذهابًا وإيابًا في طرقات الوزارة.

إعلان عفاف بخروج حافلة إلى بيت المرحوم للعزاء، وتشجيع منار لها بالذهاب مفضلة الانتهاء من واجب العزاء مع الزملاء، بدلا من أن تذهبا للعزاء وحدهما.

مكالمتها المتوترة مع إبراهيم تشرح له فيها المستجدات، ثم مكالمة تيتي كي تأتي بالبنات من الحضانة حتى تعود هي.

حافلة الوزارة التي اخترقت شوارع منطقة الطوابق حتى وقفت على رأس شارع ضيق لم تستطع المرور من خلاله، فترجَّلوا جميعًا ومشوا إلى البناية القريبة.

عويل سمر أخت المرحوم، وتقطيعها للطرحة السوداء التي كانت على رأسها.

وجوم ابنها يوسف ذي السنوات التسع وعيناه الزائغتان، والسباب الهائج الذي انطلق من فم فتحي زوج سمر متوعِّدا الفاعل بالانتقام.

البيت المتواضع والطوب الأحمر الذي كسا جدرانه الداخلية كما الخارجية، وتعليق عفاف الهامس بأنه لا يتماشى مع شياكة هاني المعهودة ولا سيَّارته، ولا شقته الجديدة التي أخبرهم أنه اشتراها مؤخرًا.

عودتها إلى المنزل منهكة القوى.

مجالستها للبنات، عراكهن على العروسة الجديدة، وهدهدتها لهن، ووعدها لهن بالذهاب إلى السينما في إجازة نهاية الأسبوع إن نامتا.

عدم عودة إبراهيم في موعده واتصاله المقتضب الذي أبلغها من خلاله سهره مع بعض الأصدقاء للعب البلاي ستيشن.

الإرهاق الشديد الذي منعها حتى من التفكير، وأسقطها نائمة كالصريعة.

وصولها إلى الوزارة في صباح اليوم التالي.

تجمُّع الزملاء في المدخل، وضابط المباحث الذي طلب منهم الحضور إلى النيابة لأخذ أقوالهم، وغياب الأستاذ مرسي رئيس القسم عن الحضور لليوم الثاني على التوالي.

حافلة الوزارة التي اتجهت بهم نحو نيابة الهرم، وحوارات الزملاء الهامسة عن الفاعل والشائعات التي بدأت تلوكها الألسن.

اجتماعهم في غرفة انتظار النيابة، تلك الغرفة الرمادية العارية عن الأثاث، سوى من بضعة بلوكات أسمنتية جلسوا عليها كيفما اتفق، انتظارا لدور كل منهم في التحقيق.

رغي الزملاء، تصاعد الصوت، الضحك، الخجل من الضحك، الصمت، ثم الهمس الذي سرعان ما يتصاعد إلى رغي وضحكات جديدة.

دخول الزملاء واحدًا تلو الآخر وخروجهم الآمن.

أمين الشرطة وهو ينادي:

«مرسي السيد أحمد»

صوت زميلها سيِّد وهو يرد:

«أستاذ مرسي ما جاش معانا، في إجازة مرضي من إمبارح»

وتعليق عفاف الهامس:

«مراته قالتلي إنه أكل كوارع من فواكه المحبة تاني، وجاتله المرة دي نزلة معوية حادة»..

«ما فيش فايدة في الأستاذ مرسي، ما بيحرَّمش»، وضحكات الجميع.

لم يتبقَّ للتحقيق إلا هي، كانوا ينتظرونها كي تتحرك بهم الحافلة معا، كما جاءوا معا.

الأمين ينظر في الورقة بيده وينادي:

«هاجر حسن عفيفي»

ارتباكها، وارتعاشة قدميها حينما قامت.

اقترابها من غرفة وكيل النيابة،

خروج عبير من الباب بعد انتهاء التحقيق معها.

نظرة عبير إليها...

تلك النظرة!

6

التحقيق

دلفت هاجر إلى حجرة وكيل النيابة، فأجلسها على المقعد الذي أمامه بإشارة من يده.

كانت هناك سيدة تجلس على يمينه، خمَّنت هاجر أنها أمينة السر المكلفة بكتابة المحضر كما حكت عنها علا.

بدأ وكيل النيابة بسؤالها عن اسمها وسكنها وبضعة أسئلة روتينية، وقد لمحت بطاقتها الشخصية أمامه، بعد أن أخذها أمين الشرطة منها مع بطاقات الجميع فور وصولهم.

طلب منها الوكيل أن تحلف اليمين.

تسارعت دقَّات قلبها، وتصاعد صوتُ تنفسها، وترددت للحظة... ثم حلفت.

«ممكن أعرف يا مدام هاجر تحركاتك ليلة الحادثة؟ أنا عرفت من عم عبد الله الحارس إن حضرتك بيتِّي في الشغل، مضبوط؟»

«أيوه مضبوط»

«مش سامع؟»

«أيوه... أيوه مضبوط»

«مش غريبة شوية؟»

«العربية ما رضيتش تدور»

«ودارت تاني يوم عادي؟ أنا عرفت إنك روَّحتي بيها من الشغل بعد ما رجعتم من العزا»

«آه... أيوه دارت»

«ما كلمتيش حد يروَّحك ليه بدل ما تباتي في الشغل؟ حضرتك متجوزة مش كده؟»، سألها وهو يقلب بطاقتها بين يديه.

«الوقت كان متأخر، وما حبتش أصحي حد... وكان ورايا شغل... فقلت فرصة أكمِّله».

«احكيلنا إيه اللي حصل ليلتها بالضبط، شفتي مين؟ مين كان سهران معاكي؟»

«ما حدش كان سهران معايا، كنت لوحدي في المكتب».

«أومال المجني عليه كان فين؟»

«المجني عليه؟»

«هاني... الأستاذ هاني اللي اتقتل، مش هو معاكي في نفس المكتب المفروض؟»

«آه... أيوه... بس يومها جهازه كان عطلان وعند الدعم الفني من الصبح، فراح يشتغل على جهاز مدام عفاف في الأوضة التانية».

«هو إنتم متقسمين إزاي؟»

«المفروض أنا ومنار وعاطف وهاني في أوضة، وعفاف وسيد وعلا والأستاذ مرسي مدير الإدارة في الأوضة اللي جنبنا، بس مكتب أستاذ مرسي مفصول بإزاز عن بقية المكاتب اللي معاه في الأوضة».

«آه تمام، مانا شفت في المعاينة... المهم، إنت ما شفتيش المجني عليه خالص ليلتها؟»

صمتت هاجر ولم ترد، بينما أخذت جفونها تطرف في سرعةٍ.

كانت تشعر بالحيرة، ولا تعرف ما يجب عليها قوله، كانت تود لو أن نسرين هنا بجوارها لكي تنصحها...

ولكنها، هنا وحدها.

«عم عبد الله بيقول إنك كنتي داخلة المبنى متوترة قوي... بسبب العربية؟»

«آه... طبعا»

«بس هو ما شافكيش وإنت خارجة من المبنى».

«أنا... أنا خرجت من الجراج».

«اشمعنى؟»

«كنت عايزة أستخدم الحمَّام، فنزلت الجراج»

«وبعدين؟»

«وبعدين خرجت ورجعت المبنى من بره»

«ليه مش من جوه؟»

صمتت هاجر، وتعالى صوتُ تنفسها...

حيرة وعجز وجفونها تطرف من جديد، كأنها أمام ورقة امتحان لا تعرف لأسئلته إجابة، امتحان يحدد مستقبلها بأكمله.

فُتح الباب ورأت ضابط المباحث يدلف منه، ويجلس في الكرسي المواجه لها.

رفعت عينيها إلى عينيه فلمحت فيهما نظرةً معتمةً روَّعتها.

لم يصرَّ وكيل النيابة على تلقي إجابتها عن سؤاله الأخير، بل استمر في أسئلته بهدوءٍ:

«طيب، شفتي مين في الجراج؟»

«شفت عبير»

«آه عبير... وبعدين؟»

«كانت داخلة الحمَّام فاستنيتها، وبعدين لما هي خرجت آآآ دخلت أنا و...»

وتذكرت هاجر اليمين... فصمتت...

«يعني ما شفتيش هاني؟»

«شفته»

«وبعدين؟»

«خرجت وسبته»

«وهو؟ ما خرجش بعدك؟»

«ما أعرفش»

اكتسبت نبرة وكيل النيابة صرامةً أشد وهو يقول:

«الكاميرات بتاعة مخرج الجراج جابتك وإنت طالعة بتجري كأنك مرعوبة من حاجة. كمان إنت ما رحتيش ناحية عربيتك، إنت قعدتي على الرصيف وبعدين قمتي ورحتي ناحية الباب الرئيسي. وهاني ما خرجش خالص»

«يمكن رجع جوه المبنى»

«لا، ما رجعش يا مدام هاجر، هو «اتقتل»»، قالها بنبرة حادة أخافتها...

انتظر حتى رأى عليها التأثير الذي ينشده، ثم لانت نبرته ثانية وهو يسألها:

«إنت عارفة اتقتل إزاي؟»

كانت نبرته ناعمة، مخيفة، كثعبان يزحف على مهل...

«لا، مش عارفة»، أجابت.

تبادل نظرة ما مع ضابط المباحث، فقال الأخير بصوتٍ رتيبٍ:

«الطب الشرعي أثبت إن المجني عليه اتقتل بواسطة قضيب حديدي كان مرمي على الأرض جنب الجثة»

سأله وكيل النيابة:

«والقضيب جه منين؟»

«ده قضيب من اللي متعشقين في أرض الجراج، سهل أي حد يسحبه ويضرب بيه»

«كان عليه بصمات؟»

«أيوه... الطب الشرعي رفع البصمات...»

«بصمات مين؟»

حوَّل ضابط المباحث نظره إليها، ثم أردف بوجهٍ خالٍ من التعبير:

«بصمات مدام هاجر».

7

بشهادة الشهود!

دوَّار عنيف اكتنف هاجر، واشتدت ضرباتُ قلبها حتى كادت ضلوعها تتحطم، بينما تكاثف ضباب أبيض على عقلها، هابطا على عينيْها ببطء وسيطرة...

«أنا مش فاهمة حاجة»، قالت هاجر وهي تُغالب عملية الإغلاق التي يُحاول وعيها فرضها.

«كلام الباشا واضح يا مدام... المجني عليه اتقتل بقضيب حديد ما فيش عليه غير بصماتك، والشهود قالوا إنك كنتي آخر واحدة معاه في الجراج، وبعدها خرجتي مرعوبة... كأنك قتلتي قتيل... ده الوصف اللي استخدمه الشهود».

«الشهود!»

اتسعت عيناها في حيرةٍ يائسةٍ وهي تكرر عبارة وكيل النيابة.

ثم تذكَّرت نظرة عبير لها على باب غرفة التحقيق...

«أيوه الشهود... عبير بتاعة النظافة، قالت إنها شافتك مع المجني عليه، كان... لمؤاخذة بيحضنك، وإنت كنتي متجاوبة، وبعدين دخل هو الحمَّام وإنت وقفتي تستنيه بره... صح؟»

مصيدة حديدية صدئة تُطبق على ضلوعها.

«يا مدام هاجر، لو المجني عليه حاول يتهجم عليكي وإنت قتلتيه قولي؟ القاضي ممكن يعتبرها دفاع عن النفس»!

«دفاع عن النفس!»

كانت هاجر تردد عباراتهما كالمجذوبة التي لا تعي ما يقولان.

«أيوه يا مدام هاجر... لو كان بينكم علاقة وقتلتيه بسببها قولي... إحنا ممكن نساعدك».

«علاقة...!»

عجز وشلل يكتنف أعضاءها، كأن مفاصلها قدَّت من صخر.

«أيوه علاقة... مش عايز استعبااط».. قالها ضابط المباحث في غضب وقد استفزه شرود هاجر.

أشار إليه وكيل النيابة مهدئًا، وأخذ هو ناصية الحديث:

«مدام هاجر، إحنا عايزين نساعدك، بس لازم تقوليلنا الحقيقة، قتلتيه ليه؟»

«أنا ما قتلتش حد... والله العظيم ما قتلت حد».

«أومال مين اللي قتلته؟ أمي؟».. صرخ فيها الضابط وقد أغاظته دموع تماسيحها التي بدأت تسيل.

قال وكيل النيابة:

«يا مدام هاجر، حضرتك زوجة وأم، إحنا مش عايزينلك الشوشرة، ده إنت عندك بنات، سمعتهم من سمعتك، فكري في كلامنا، وساعدي نفسك... ها قتلتيه ليه؟»

«والله ما قتلته... أنا لما خرجت كان لسه عايش»

«أومال خرجتي تجري زي اللي عامله عملة ليه؟ وبصماتك اللي على القضيب... والتعويرة اللي في وشك دي؟» قالها وهو يشير إلى خدها في نفاد صبر..

«تعويرة؟».. تساءلت هاجر في حيرة وهي تتلمَّس وجهها بأصابعها، البثرة في وجهها، لقد تضخَّمت من التوتر، ويبدو أنها خدشتها بظفرها دون قصد، فتحولت إلى جرح صغير دامٍ...

«دي... دي كانت حباية حضرتك وأنا خربشتها».

«حباية».. ردد الضابط في سخريةٍ، ثم استطرد قائلا:

«عمومًا إحنا لقينا بقايا جلد تحت ضوافر المجني عليه، واضح إنه حاول يقاوم في لحظاته الأخيرة... تقرير الطبيب الشرعي هيطلع في خلال كم يوم، وهنعرف هو جلد مين، و... ألف سلامة ع الحباية يا مدام».

نظر إليها وكيل النيابة، هل لمحت في عينيه نظرة تعاطف؟ تبدَّدت أوهامها عندما قال:

«مدام هاجر، النيابة بتوجه لك اتهام بقتل المجني عليه هاني طه عبد الحليم، إيه أقوالك؟»

«والله العظيم ما قتلته».

«ولا ضربتيه بالقضيب؟»

«ولا ضربته والله والله»

«طب بصماتك جت على القضيب إزاي؟»

«بصماتي... ماعرفش... آه... أيوه افتكرت، أنا سندت على القضيب، كنت هاقع وأنا بأدور فمسكت فيه جامد علشان ماقعش، بس دخت ووقعت»..

«وإنت بتدوري؟ تمام تمام... وخرجتي مذعورة ليه؟ والمجني عليه ما خرجش وراكي ليه».

«ماعرفش».

«وشهادة عبير باللي حصل بينكم، وشهادة عم عبد الله إنك كنت مرتبكة ومتوترة، وبياتك في الشركة؟»

«ماعرفش... ماعرفش»

«حدجها وكيل النيابة بنظرة ما، ثم التفت إلى أمينة السر بجانبه قائلا:

«اكتبي عندك... أمرت النيابة بحبس المتَّهمة هاجر حسن عفيفي أربعة أيام على ذمة القضية».

وتهاوت هاجر أرضًا...

8

في الحجز!

تم وضع قيد حديدي في يد هاجر اليمنى، بينما وضع القيد الآخر في اليد اليسرى لأمين الشرطة.

خرجت من غرفة الحجز منكسة الرأس بقدمين مرتعشتين لا تقويان على حملها، رامية بثقلها على جسد الأمين الذي يجرُّها.

التفوا جميعًا من حولها وتعالت الأصوات:

«إيه ده، إيه اللي حصل؟»، «إيه يا هاجر، في إيه؟»

صوت منار يسأل في هلع:

«إيه ده؟ إنتم واخدينها على فين، فهمونا فيه إيه؟»

كانت تميِّز أصواتهم فقط، أما صورهم فلم تكن سوى تكوينات لونية مهزوزة في عينيها الممتلئتين بالدموع.

تحرَّك الأمين مسرعا يشدُّها وراءه، حتى كادت تتعثَّر على السلم. حافظت على توازنها في صعوبة وهو يُسرع خُطاه عبر دهاليز المبنى حتى خرج إلى الساحة ووقف أمام صندوق أزرق كبير له باب

بسلالم، ميزت بعدها أنه (بوكس) شرطة، صعدت إليه وهي تقاوم يدها المشدودة إلى الأمين، فلم تستقر حتى استقر هو بجوارها.

لم تكن واعية بمن ركبوا معها السيارة، كانت عيناها مثبَّتتين على أرضيتها المليئة بالفتحات، والتي كان يمر الأسفلت من تحتها كشريط سينما يتم عرضه بسرعة، بينما زكمت أنفها رائحة نتنة لم تعرف لها مصدرًا.

بعد لحظاتٍ، وقفت السيارة ونزل الأمين يجر هاجر وراءه. مرَّت بإجراءات كثيرة، لم تميِّز منها سوى تلك اللحظة التي أعمى فيها الفلاش عينيها تزامنًا مع لسعة الألم في قلبها، عندما علَّق أمين الشرطة وهم يلتقطون صورتها قائلا:

«بالذمة مش مكسوفة من نفسك؟ ولادك هيقولوا عليكي إيه؟»



نزعوا عنها القيد الحديدي، واقتادوها عبر بضع درجات إلى الأسفل، فيما بدا أنه القبو. وجدت نفسها في طرقةٍ ضيقةٍ تنتهي ببابٍ حديدي ضخم، فتحه أمين الشرطة بصوتٍ هادرٍ انتفضت له.

وقفت على المدخل تطالعها عشرات الأزواج من العيون تلمع في العتمة، لم تكن نظراتهن لها عادية، ولا فضولية، كانت نظرات تفيض بالعداء.

خطت إلى داخل غرفة الحجز، فانغلق الباب وراءها بذات الصوت الهادر، فانتفضت له ثانية.

ظلَّت واقفة في مكانها، تتلقَّى نظراتهن، حتى قالت إحداهن:

«هتفضلي متسمَّرة مكانك كده؟ روحي اقعدي هناك... على البلاطة الفاضية اللي ف الآخر!»

«بس ده مكان بطة»

«لما تيجي بطة نبقى نتصرف... أنا عارفة هنخلص من القرف ده إمتى؟ كل يوم يرموا علينا جتة جديدة»

خاطبها صوت أكثر خفوتًا:

«تعالي يا حبيبتي... اقعدي هنا ما تخافيش!»

تحركت هاجر...

رفعت قدمًا تلو الأخرى، جاهدة ألا تدوس أطراف الأجساد المتلاصقة على الأرض، همست ربما بإحدى عشرة «آسفة» إلى أن وصلت للبلاطة الموعودة، وجلست.

ضمَّت ركبتيها إلى صدرها في ذعرٍ، غير مستوعبةٍ ما حدث لها كي تُصبح رهينة الغرفة الممتلئة بعشراتٍ الأجساد المكدسة.

تعالى صوتٌ غليظٌ:

«إنت جايه ف إيه يا حلوة؟»

لكزتها الفتاة القابعة بجوارها قائلةً:

«ردي على أبلة تهاني»

«أنا؟» سألت هاجر بصوتٍ خافتٍ.

«أيوه يا حبيبتي، هو فيه حد هلَّ علينا غيرك؟»

«مش عارفة»

«يعني إيه مش عارفة؟ مخدرات، ولا دعارة، ولا مظاهرات؟»

ردَّت أخرى:

«شكلها مش بتاعة دعارة يا أبلة»

«ولا مظاهرات، دوكهم بيبقوا لابسين عبايات وطرح نازلة على صدرهم»..

«تلاقيها أموااال، إنت جاية ف أموال يا بت؟ شيك من غير رصيد؟»

«لأ لأ، أنااا... آآآ... همه لقوا جثة ف الجراج»، ردَّت هاجر بتردد.

علقت صاحبة الصوت الغليظ قائلةً:

«جثة... إنت جاية ف قتل؟ ما يبانش عليكي خالص يا سُهنة»..

«آه والله يا أبلة ما يبانش عليها».

لم تستطع هاجر تبيُّن وجوههن وسط العتمة ووضعية القرفصاء التي يعتمدنها، ولم تكن تريد.

الوجوه الوحيدة التي شغلتها، وأقضَّت عليها مجلسها، هي وجه حبيبة ووجه زينة...



9

زيارة

«هاجر حسن عفيفي... زيارة»

قالها الأمين بصوته الجهوري، تلاه الصوت المخيف لفتح الباب الحديدي إياه.

تساءلت هاجر عمَّن عساه يزورها...

تمنَّت ألا يكون إبراهيم.

خاضت حرب المرور بين الأجساد متسلِّحة بكلمتها الوحيدة: «آسفة»، حتى وصلت إلى الباب وخرجت منه إلى الطرقة الضيقة.

طالعها وجهُ نسرين...

نسرين، العزيزة القديرة.

«قدامكم دقيقتين، بسرعة!»

ظنَّت هاجر أن الزيارة ستكون نصف ساعة على الأقل، وفي حجرة المأمور، مثل الأفلام، ولكن دقيقتين فقط!

لم تترك لها نسرين فرصة للكلام، بل عاجلتها بحضنٍ عميقٍ، ربما استحوذ على نصف المدة، ثم همست في أذنها قائلة:

«ما تقلقيش يا هاجر... هتخرجي بإذن الله»

لم تستطع هاجر تمالك نفسها فانهمرت دموعها وهي تقول:

«والله ما قتلته يا نسرين، أنا مش عارفة إيه اللي حصل؟ ليه بيعملوا فيا كده؟»

«ما تقلقيش يا حبيبتي، عمو عادل كلم محامي صاحبه، هنقعد معاه ونفهم منه كل حاجة»

رفعت هاجر رأسها من على كتف نسرين:

«حبيبة وزينة؟»

«كويسين، ما تقلقيش، خدي دول خليهم معاكي»

ومدَّت لها كيسين كبيرين من البلاستيك حملتا اسم سوبر ماركت شهير، توتَّرت هاجر لمرآهما..

«لا لا، هاحطهم فين، ما فيش مكان جوه خالص، أي حاجة هاشيلها على حجري، وأنا قاعدة أصلا بالعافية».

«هتاكلي وتشربي منين؟»

«مش عايزة آكل ولا أشرب، علشان ما أدخلش الحمَّام... الحمَّام فظيع يا نسرين»

«يا حبيبتي، معلش والله العظيم هتعدي»

قاطعهما الأمين بخشونةٍ قائلا:

«يلا يا حضرات خلاص كده»

«بصي ف الأكياس وخدي اللي هتحتاجيه»

انصاعت هاجر، فأخذت من الكيس الأول زجاجتي مياه، وعلبتي عصير، وبضع شطائر جبن وشيكولاتة من تلك المعبأة آليا، وعبوتي بسكويت، ومصحفا...

كان المصحف أحوج ما تحتاج إليه.

مدت لها نسرين الكيس الثاني بسرعة فأخذت منه هاجر غيارات داخلية، ومزيلا للعرق، وزجاجة عطر صغيرة، ومناديل ورقية وأخرى مبللة، وعبوة فوط صحية.

نسرين القديرة التي لا تنسى شيئًا.

أمسكت بيد نسرين وناشدتها بعينيها:

«حبيبة وزينة في عينينا يا هاجر، إحنا قلنالهم إنك اضطريتي تسافري تبع الشغل، تيتي خدتهم النهاردة عندها، وهيباتوا بالليل مع إبراهيم في البيت عادي»

قالت نسرين اسمه في سرعةٍ وكأنها تريد تجاوزه، فلم تسألها هاجر عنه، فقط كررت اسميْ ابنتيها قبل أن تتوارى خلف الباب الحديدي.



حاولت هاجر جاهدةً ألا تُضايق الجالسات حتى وصلت بلاطتها، المدعوة بطة لم تكن ظهرت بعد، فالبلاطة لا تزال بلاطتها إذن.

جلست وضمَّت ركبتيها إلى صدرها ـ وهي وضعية الجلوس الوحيدة المُتاحة في تلك المساحة ـ ووضعت الكيس أعلى ركبتيها.

طمأنت زيارة نسرين قلبها قليلا، فرفعت رأسها وبدأت تتأمل رفيقات الحجز، قامت بعدِّهن، ثلاث وثلاثون امرأة، وكانت هي الرابعة والثلاثين.

أدركت حينها سبب نظراتهن العدوانية، فمن هي التي تريد أخرى تقاسمها أرض الغرفة وهواءها؟

كانت الغرفة بلا أي شبابيك أو فتحات، سوى فتحة مربعة صغيرة أعلى الحائط، مغطاة بسلك مُتشابك يتوسَّطه شفاط صغير قذر، كان هو مصدر الهواء الوحيد للغرفة، دون أن يمرر ضوء النهار.

نظرت نحو المصباح الوحيد المتدلِّي من السقف، والذي كان يبدد بصعوبة قتامة الجدران الأسمنتية التي لم تكن تزيِّنها سوى بضعة مسامير معلَّقة عليها حقائب بلاستيكية بها على ما يبدو أغراض النزيلات الشخصية، بينما امتدت من تلك المسامير ـ عبر سماء الغرفة ـ بضعة حبال رفيعة تدلَّت من عليها ملابسهن.

حاولت الهروب بإغماض عينيها، بيد أن حواسها كانت أقوى منها، وكانت مصرَّة ـ من قسوة وكثافة ما تستقبله من مؤثراتٍ ـ على إعادتها إلى الحاضر بكل ألمه، وإبقائها أسيرةً فيه.

رائحة السجائر التي لا تطيقها كانت تعبِّق جوَّ الغرفة وتخنقها. غالبية النزيلات كنَّ يُدخن السجائر، سيجارة تلو الأخرى، وقد وضعت كلٌّ منهن بجوارها زجاجة بلاستيكية صغيرة للطفي والأعقاب، ولم ينجح بالطبع الشفاط قليل الحيلة في تبديد الرائحة.

صوت النزيلات لم يكن يتوقف، يهمسن أحيانًا ويتشاكلن أحيانًا أخرى، على خلفية صوت الشفاط الرتيب.

عظامها كانت تئن من ألم القرفصاء وبرودة الأرض.

«يا رب هوِّنها عليَّا يا رب وخليك معايا».. تمتمت.

تذكَّرت صلاة العصر، فقامت فزعة تسأل:

«هي الساعة كام؟»

نظروا إليها في بلاهةٍ، لم يبد على إحداهن الاهتمام بالوقت. ولم تكن أي منهن ترتدي ساعة، سوى سيدة خمسينية جالسة على بعد ثلاثة أجساد عنها، نظرت السيدة في ساعتها الأنيقة التي تزيِّن رسغها وقالت:

«الساعة خمسة»

«المغرب خلاص إدَّن؟».. تساءلت هاجر.

«ليه هو بيأدِّن الساعة كام؟» سألت إحداهن.

«إحنا ف عز الشتا، تلاقيه بقى بيأدِّن بعد العصر على طول» ردَّت أخرى.

توجَّهت هاجر نحو الحمَّام للوضوء، كان الحمَّام عبارة عن ركنٍ من الغرفة، له بابٌ خشبي مُتهالك، مفتوحٌ لا يغلق، لم يكن

هناك حوض ولا صنبور، فقط حفرة في المنتصف لقضاء الحاجة، وخرطوم يتدلى بجوارها، ينزل منه سرسوب ماء دائم.

حاولت هاجر إزاحة الأكياس التي امتلأ بها الحمام كي تتوضأ، تلك الأكياس التي عرفت فيما بعد أنها القمامة، يكوِّمنها في الحمَّام حتى يسمعن الخبطة المميَّزة لجمع القمامة والتي ينفتح الباب على إثرها، فيتعاونَّ معًا في إخراج الأكياس سريعًا.

توضَّأت من الخرطوم في صعوبة، وحمدت الله على ارتدائها جوربًا تمسح عليه، ثم تساءلت في حيرةٍ، هل لها في رخصة أن تتوضأ عليه ثلاثة أيام كالمسافر؟ قطبت بوجهها وهي تفكر، لو كان هاتفها معها، لكانت سألت (جوجل) على الفور.

عادت إلى بلاطتها وبدأت في الصلاة، كنَّ يرمقنها في صمتٍ، ولم ترد هي أن تضايقهنَّ بكثرة حركتها، فصلَّت واقفة.

كانت روحها تهفو لسجدة، سجدة واحدة، تترك فيها لدموعها العنان، وتبثُّ لله حزنها وشكواها، بيد أنها اكتفت بالدعاء والابتهال وقوفًا.

سمعن لها نهنهة فلم يبالين بها، ولم تبال هي أن تعلو بنهنهتها حتى انتهت.

أنهت صلاتها واستردت أنفاسها المخطوفة وجلست تسمع- رغمًا عنها- ثرثرة الجنائيات من حولها.



10

المجروح

وقف إبراهيم بجوار النافذة متأملًا- في شرودٍ- زوجة أبيه وهي تعتني بالحديقة على ضوء شمس الغروب، على خلفيةٍ من أصوات أخيه طلعت وزوجته نسرين وهما يتبادلان الحديث انتظارًا للمحامي.

كان اجتماعهم في غرفة الجلوس الفسيحة بمنزل أبيه بالطابق الأرضيِّ من الفيلا ذات الثلاثة طوابق التي بناها الأب كي يسكنوا فيها معًا.

تأمَّل إبراهيم الحديقة الفسيحة التي أحبتها هاجر، والتي طالما ألحَّت عليه كي يحتسيا فيها أقداح الشاي وهما يتجاذبان أطراف الحديث؛ ولكنه كان دومًا مشغولًا وملولًا.

كانت لا تفوِّت فرصة دون أن تلمِّح إلى تأخره عن تشطيب الشقة، بينما أنهى طلعت أخوه تشطيبها في وقتٍ قياسي وانتقل إليها مع أسرته الصغيرة.

ماذا تعلم هاجر عن مشاكله في الشركة، هي تظن أن عمله في شركة أبيه كمهندس إنشائي، مثل أخيه، يعني عملًا مستقرًّا بلا معوقات.

هل خطر على بالها شعوره وهو يذهب يوميًّا إلى مكانٍ لا يُحبه، ولا يجد نفسه فيه، ولا يستطيع الإنتاج من خلاله؟

أن يكون دومًا في مقارنةٍ غير معلنةٍ مع أخيه الذي يحبه، ثم لا يستطيع أن يمنع نفسه من الشعور بالغيرة تجاهه، فيعاني دومًا من كونه إنسانًا سيئًا...

سيئ في العمل، سيئ القلب، وأتت هاجر لتشعره بأنه سيئ كزوج وأب أيضًا!

قطع حبل أفكاره صوتُ أبيه قائلًا:

«اتفضل يا حمدي اتفضل، الولاد جوه»

انتبه إبراهيم من شروده واعتدل بجسده مصافحًا صديق والده في فتورٍ، بينما رحَّب به طلعت بجديته المعهودة ودعاه للجلوس.

استهلَّ المحامي الجلسة بقوله:

«أنا لسه جاي من النيابة وجمَّعت شوية معلومات كده، بس عايز أسمع منكم إيه اللي حصل بالضبط»

أومأ المهندس عادل برأسه، ثم قال:

«احكي لعمك اللي تعرفه يا إبراهيم!»

رماهم إبراهيم بنظرةٍ خاويةٍ ولم يُعقِّب، فانبرت نسرين تحكي لهم كل ما عرفته من منار التي أبلغتها بخبر احتجاز هاجر.

أنصت إليها المحامي حتى انتهت من كلامها فقال:

«قضية مش سهلة، فيه أدلة كتير على هاجر، ووكيل النيابة مقتنع بيها، وإلا ما كانش أصدر أمر بحبسها»

«لا يمكن هاجر تعمل كده، لا يمكن»، قالتها نسرين بحرارة، بينما قطَّب إبراهيم وجهه ولم يعلِّق، فتفرَّس فيه المحامي بفضولٍ ثم قال:

«إبراهيم شكله مش متأكد زيك»

«إبراهيم!»، عقَّبت نسرين مستنكرةً.

«أنا ماعرفش حاجة... وماحدش يسألني على حاجة»

«إيه شغل العيال ده، هي مش مراتك اللي ف الحجز دي ولا إيه؟»، قالها الأب في غضب.

«بالراحة يا بابا، إبراهيم أكيد مجروح»، قال طلعت مهدئًا.

«مجروح من إيه؟ أنا ماليش دعوة بيها، أنا ليا بناتي وبس».

تدخَّل المحامي قائلًا:

«أنا مش هنا علشان أسمع الكلام ده، أنا هنا علشان أعرف الحقايق، هاجر كانت فين ليلة الحادثة يا إبراهيم؟»

«بايتة في الشغل»

«ليه؟»

«وأنا إيش عرفني؟»

«يعني إيه يا إبراهيم؟ هي قالتلك باتت في الشغل ليه؟ أكيد قالتلك سبب، هي المفروض بترجع البيت الساعة كام؟»

حدج إبراهيم المحامي بنظرةٍ فارغةٍ ولم يرد، ولكن نظرة طلعت الصارمة جعلته يرد مرغمًا:

«المفروض بتخلص الساعة تلاتة وتكون ف البيت تلاتة ونص أربعة، بس آخر كم يوم كان عندهم شغل كتير علشان تقفيل الميزانية فكانت بتسهر، وترجع على ١٠ أو ١١ بالليل»..

«ويوم الحادثة؟»

«آخر مكالمة بيننا كانت ع الساعة ٩ بالليل، قالت ساعتين بالكتير وهتمشي، نمت أنا والبنات، وصحيت الصبح ما لقتهاش ف البيت، لقيت منها مسج ع الموبايل إنها اضطرت تبات ف الشغل علشان العربية ما دارتش، وصعب عليها تصحيني وتنزلني»..

تدخَّلت نسرين قائلة:

«أيوه، ده بالضبط اللي قالته لمنار زميلتها ف المكتب».

«هي بطارية العربية كان فيها مشكلة؟»

«لا، خالص»

قالها إبراهيم دون أن يُلاحظ نظرة نسرين المحذِّرة التي لمحها المحامي فعقَّب قائلًا:

«نسرين يا بنتي، أنا هنا علشان هاجر، أنا ف صفكم مش ضدكم، ما ينفعش تخبوا عني أي معلومة حتى لو شايفين إنها ممكن تؤذي هاجر، المعلومات دي كلها عند ضابط المباحث، وعند وكيل النيابة، فمن مصلحة هاجر إني أعرف كل حاجة همه عارفينها، وأكتر، علشان أقدر أبني دفاعي صح».

لانت نظرة نسرين، فأردف المحامي قائلًا:

«اتفقنا؟»

«اتفقنا».

11

الأدلة

استمر المحامي في توجيه الأسئلة لكلٍّ من إبراهيم ونسرين، ثم صمت متفكرًا لعدة دقائق، قبل أن يعتدلَ في جلسته ويقول:

«خلينا نلخَّص الأدلة اللي بتدين هاجر: أول وأهم دليل هو البصمات، بصماتها على أداة الجريمة، وما فيش بصمات غيرها، هي قالت في المحضر إن بصماتها كانت على القضيب بسبب إنه كان الأقرب لها فمسكت فيه لما كانت هتقع».

«مش يمكن هي كانت ساندة على العمود ده، بس هو اتقتل بقضيب تاني؟» سألت نسرين.

«هو قضيب واحد، من طرف عليه بصمات هاجر، والطرف التاني عليه دم المجني عليه، وما فيش أي بصمات تانية».

الدليل التاني هو الخدش اللي في وشها مع الجلد اللي تحت ضوافر المجني عليه، الطب الشرعي أخد مسحة من الجلد والتقرير هيظهر في خلال أيام، لكن واضح إن النيابة مقتنعة إنه جلد هاجر».

«أنا مش فاهمة حاجة، هو إزاي تقرير الطب الشرعي لسه ما طلعش، وإزاي عرفوا إنها بصمات هاجر اللي على القضيب؟»

«البصمات من أول الحاجات اللي بتطلع وبتوجِّه التحقيق، لكن التقرير نفسه بياخد كذا يوم، ولو فيه ضغط شغل ممكن ياخدله شهر أو أكتر، المهم، ده مش موضوعنا، الدليل الثالث هو الكاميرا اللي على مخرج الجراج، صوَّرت هاجر وهي طالعة بتجري كأنها مرعوبة من حاجة، وهاني ما طلعش وراها، لا هو، ولا أي حد تاني، بينما شهادة عبير عاملة النظافة إنها سابتهم مع بعض في الجراج، وما كانش فيه حد غيرهم. ده غير شهادة حارس المبنى اللي قال إنه شاف هاجر داخلة المبنى وهي في حالة ارتباك، وطبعًا العربية اللي دارت تاني يوم عادي، واللي الكاميرا أثبتت إن هاجر ما حاولتش تدورها يوم الحادثة».

«طب و...»

«ها؟»

«كنت عايزة أسأل عن حاجة بخصوص الكاميرات، بس راحت عن بالي»..

«فكَّري!»

«لا، خلاص راحت، بس هاسأل سؤال تاني: الكاميرات اللي في الجراج ما صوَّرتش اللي حصل؟»

«للأسف، ما كانش فيه غير كاميرا واحدة اللي شغالة، والزاوية بتاعتها بعيدة».

«يعني شافوا التسجيل بتاعها وما لقوش فيه حاجة؟»

«مش عارف، خليني أسأل في النقطة دي»، قالها المحامي وهو يخربش بكلماتٍ سريعةٍ في بلوك نوت صغيرة بيده.

سأله طلعت في اهتمام:

«حضرتك اتكلمت علًى الأدلة، لكن إيه هو الدافع؟ ليه هاجر فجأة هتقتل زميلها اللي بقالها معاه كذا سنة، وعمر ما كان فيه بينهم أي خلافات حسب ما فهمت من نسرين؟»

استرق المحامي نظرةً نحو إبراهيم، ثم قال:

«أنا آسف طبعًا للي هاقوله، بس يظهر كان فيه بينهم علاقة من نوعٍ ما، عاملة النظافة قالت إنه... إحم... قرَّب منها وهي كانت مستسلمة، وبعدين هو دخل الحمَّام وهي كانت مستنياه».

«مستحيل هاجر تعمل كده، مستحيل»، قالت نسرين في إصرارٍ.

«إنت بتدافعي عنها إزاي بعد الكلام ده؟ طب شرفي أنا؟ ما يسواش عندك حاجة؟»، قال إبراهيم وقد بدأ يفقد أعصابه.

«ما تنساش إن هاجر تبقى بنت خالتي قبل ما تبقى مراتك، وأنا عارفة أخلاقها كويس، إحنا كمان أصحاب، لو كان فيه أي حاجة من النوع ده كانت حكت لي».

سألها المحامي:

«يعني إنت متأكدة إن ما كانش فيه بينهم أي علاقة؟»

«متأكدة»، قالتها نسرين في ثقةٍ.

ثم أردفت وقد تردد صوتها:

«بس...!»

«شفتم، كنت متأكد إن فيها حاجة»، قاطعها إبراهيم بصوتٍ كالفحيح.

12

لحظة ضعف؟

نظرت نسرين إلى إبراهيم في سخطٍ، وقالت موضحةً:

«لا، إنت فهمت غلط، ما كانش فيه بينهم حاجة من ساعة ما اتخطبتم. بس قبل ما تتخطبوا، كان فيه إعجاب متبادل، هي كانت بتحكيلي عليه، بس ما كانتش عارفة تحدد طبيعة العلاقة، ساعات كان بيهتم بيها، وساعات تلاقيه بيتكلم عن بنت تانية بإعجاب.. فضلوا ع الحال ده بتاع سنة لحد ما إنت اتقدمتلها، ساعتها أنا قلتلها إن هاني ده لعبي ومستهتر، ومش بتاع جواز، وشجعتها تتعرف عليك، ولما لقيتها مرتاحة، شجعتها توافق على الخطوبة، بعدها قالتلي إنها لقت معاك الأمان والاستقرار اللي افتقدتهم من بعد وفاة خالتي وجوزها الله يرحمهم. ومع خطوبتكم انتهى موضوع هاني ده خالص وبقى مجرد زميل شغل، وبعدها اتجوزتم وحملت هي وبدأت في أجازات الولادة ورعاية الطفل، وانقطعت علاقتهم لحد من كم شهر لما رجعت الشغل، ورجعوا على قد الزمالة وبس».

أطرق إبراهيم برأسه أرضًا بعد كلمات نسرين، بينما عقَّب المحامي قائلًا:

«لكن يا نسرين، هي للأسف ما أنكرتش قدام النيابة موضوع الـ... التقارب الجسدي اللي قالت عليه الشاهدة».

«أكيد فيه حاجة غلط... أكييد، يمكن كانت دايخة وبيحاول يساعدها، أو حاول يتحرش بيها وعاملة النضافة دي ما عرفتش تميِّز اللي شافته؟»

«لو هي قالت إنه كان بيحاول يعتدي عليها وإنها ضربته دفاعًا عن النفس، الوضع هيتغير خالص».

«أكيد ده اللي حصل بعد ما العاملة مشيت».

«ما هو ده اللي الضابط قاله لهاجر في التحقيق، بس هاجر أنكرت».

«يعني إيه؟»

«يعني أصرَّت إنها ما قتلتوش، وإنها سابته عايش وخرجت».

«أومال خرجت تجري ليه؟»

«بالضبط».

«هي قالت إيه في التحقيق؟»

«ما ردتش على السؤال ده».

«طب نروحلها زيارة ونسألها».

«نسرين، علشان أكون صريح معاكي، الأدلة المادية أهم حاجة في القضية، الأدلة دي للأسف بتثبت تورطها بالكامل، فأي كلام أو تفسير هتقوله هي ما لوش قيمة جنب الأدلة دي، وأنا الصراحة مش متخيل أي حاجة ممكن تقولها تفسِّر بصماتها اللي على أداة الجريمة، ولا جلدها اللي تحت ضوافر المجني عليه.. ما فيش قدامنا غير...»..

«إيه؟»، سألت نسرين في أملٍ.

«إنها تقول إنه كان بيحاول يعتدي عليها»..

قاطعهما طلعت قائلًا:

«مش هتقول».

نظرت إليه نسرين في حنقٍ:

«ليه بتقول كده يا طلعت؟ حرام عليك».

«هاجر مش هتقول حاجة ما حصلتش».

«أنا عارفة إن هاجر ما بتكدبش، بس لو ده اللي هينجيها ممكن...».

حرَّك طلعت رأسه نافيًا تفسيرها:

«مش بس إنها ما بتكدبش، هاجر أضعف من إنها تقول كذبة وتسبكها وتصر عليها».

«مش فاهمة».

«يعني أنا مصدق إن هاجر بريئة، بس مش هينفع نثبت براءتها بكذبة، هي نفسها مش هتعرف تحبكها».

«مع احترامي ليك يا طلعت يا ابني، مش مهم إنت تصدق إيه، المهم الأدلة بتقول إيه؟ هو ده اللي النيابة هتصدقه».

«يعني ما فيش أمل؟»، قالتها نسرين غير مُصدقةٍ.

«مين قال كده؟ الأمل دايمًا موجود، والطريق لسه طويل، أنا من ناحيتي هادرس ملف القضية وأشوف لو فيه أي ثغرات ندخل منها. فيه حاجة لفتت نظري في التحقيقات، الموبايل بتاعه، ما كانش موجود لما لقوا الجثة، وحاليًا مقفول».

«طب وده معناه إيه؟».

«صعب نقفز لاستنتاج دقيق حاليًا، لكن دي معلومة غريبة واجب ناخدها في الحسبان».

تدخَّل طلعت مقترحًا:

«هل ـ مثلًا ـ حرامي دخل وسرقه بعد ما اتقتل؟ ده كده ممكن يكون شاف حاجة، ممكن يكون شاهد وعنده معلومات».

«طب وإزاي ما ظهرش في الكاميرات؟»، سألت نسرين.

«علشان كده بأقولك لسه طريقنا طويل»، أجاب المحامي.. ثم استطرد قائلًا:

«عايزك يا نسرين تتكلمي مع زمايلها في الشغل، اعرفي منهم كل حاجة حصلت يوم الحادثة مهما كانت تافهة، شوفي لو فيه حد بينه وبين القتيل أي خلافات، أو حتى بينه وبين هاجر، لو لقينا حاجة زي كده، يبقى الباقي سهل».

«حاضر يا عمو».

استأذن المحامي يتقدمه صديقه إلى باب المنزل، بينما أطرق إبراهيم برأسه في تفكيرٍ عميقٍ وقد غشيت الحمرة وجهه.

تأمَّلت نسرين وجهه ولم تعرف، أهي حمرة الغضب، أم الخجل!

كانت هي الأخرى تُفكر وقد غشيتها الحيرة، لقد أكدت للمحامي استحالة وجود علاقة بين هاجر وهاني، تلك قناعتها حقا، ولكن الآن، وبعد تعليقات إبراهيم، غزا الشك قلبها.

هي لم تكن قريبةً من هاجر مؤخرًا مثلما كانتا في الماضي، آخر مكالمة بينهما كانت منذ أسبوعين تقريبًا، وعندما تلقَّت مكالمتها منذ عدة أيام لم تستطع الرد، كانت مشغولةً في المستشفى فقررت الاتصال بها في وقتٍ لاحقٍ، ولم تفعل.

ضيَّقت عينيها تُراجع ردود إبراهيم، إنها تشي بأن العلاقة بينه وهاجر ليست على ما يُرام. تذكرت نسرين كم كانت تبدو هاجر باهتةً في الفترة الأخيرة، ولكنها لم تجد وقتًا كي تطمئن عليها.

ابنة خالتها العزيزة التي لم تكن تفترق عنها إلا لمامًا، قد فرقتهما المسئوليات، ما بين عملها كطبيبة في المستشفى نهارًا، وفي العيادة مساء، مع المذاكرة وتمارين الأولاد، بخلاف أعمال المنزل التي لا تنتهي. وها هي ذي الآن، في عرض لحظاتٍ مع هاجر كي تعرفَ منها الحقيقة، غير أن تلك اللحظات ليست مُمكنة.

ولكن برغم البعد، هي تعرف أخلاق هاجر جيدًا، فهل اختلقت العاملة ما قالته لوجود ضغينةٍ نحو هاجر مثلا؟ لِمَ لَم تُنكر هاجر روايتها إذن؟

هل كانت لحظة ضعف؟

لقد قرأت العديد من المشكلات الشبيهة على صفحات (الفيسبوك) في الفترة الأخيرة. التيمة ذاتها، زوجة تشعر بالملل وتُعاني من تجاهل الزوج وانشغاله، فتقع في براثن رجل بلا أخلاقٍ، قد يكون زميلًا لها في العمل أو أحد المعارف أو حتى طَبيب الأسرة، يُلاحظ خوار عزيمتها، فيغدق عليها معسول الكلام، حتى تُصبح فريسةً سهلةً، ثم يأتي الندم لاحقًا!

لا لا، ليست هاجر... هي تعرفها جيدًا.

أم (كانت) تعرفها جيدًا؟!

لم تستطع نسرين إنكار حقيقة أن الناس يتغيرون طيلة الوقت، تُغيِّرهم ضغوط الحياة، أو مطاردة الأحلام المستحيلة، وهي قد تباعدت عن هاجر كثيرًا ولم تعد تعرف دقائق حياتها.

استفاقت نسرين من أفكارها على عبارة منى زوجة حميها:

«العشا جاهز يا شباب، اتفضلوا!»

كلمة شباب انتشلتها من أفكارها اليائسة، كانت نداء منى المُعتاد لهم، والكفيلة بإفاقة روح التحدي بداخلها. كلمة بالنسبة لها وهي في أوائل الأربعين، أروع من كل مجاملةٍ أخرى.

لحقت نسرين بمنى وهي تؤنِّب نفسها على منحى الشك الذي سلكته نفسها تجاه هاجر.

صرخ قلبها في يقينٍ: لا، ليست هاجر...

بينما تساءل عقلها في حيرةٍ: أم أنها...؟

13

عادت بطة!

فُتح الباب على حين غِرة، لتدخل منه سيدةٌ ضخمةٌ، مُتشحة بالسواد، ازدحم وجهها بعلاماتٍ كثيرةٍ طغت على آثار الزمن فيه، فلم تستطع هاجر الجزم بسنها.

كان وجهها أسمر مفلطحًا، به الكثير من البثور الغامقة، تتقاطع معها خطوطٌ طوليةٌ وعرضيةٌ ومائلةٌ، خمَّنت هاجر أنها آثار إصاباتٍ وعركات قديمة، مما قذف في قلبها الخوفَ لمرآها، خاصة مع التوتر الذي عمَّ الجميع عند ظهورها، وقد صاحت إحداهن بلهجتها الممطوطة:

«اتفضلي يا بطاااة، مكانك محفووووظ»، بينما لكزتها من بجوارها قائلةً في خفوتٍ:

«ده مكان بطة، قومي بسرعة!»

فزَّت هاجر من مكانها والتصقت بالحائط، تتساءل عن سبب المكانة التي تحظى بها بطة، إنها تتعامل وكأنها مديرةٌ للغرفة! فهل اعتبروها «فِروِد» الزنزانة بسبب قوَّتها الجسدية ووجهها المُخيف؟

عرفت هاجر فيما بعد أن النزيلات لديهن قناعة بأن بطة «مُخبرة» تعمل مع الحكومة بغرض نقل ما يدور في غرفة الحجز من أحداثٍ وأقاويلَ إلى الأمناء والضباط، وقد عزون ذلك إلى كثرة غيابها خارج الغرفة، فأصبحن بسبب هذا الظن يُعاملنها معاملةً خاصة تلقائيًّا.

جلست بطة فاحتلت على الأقل أربع بلاطات، بينما ضغطت الباقيات أجسادهن في انصياعٍ. نظرت بطة حولها بهيمنةٍ، ثم ثبتت نظرتها على هاجر فتطوعت إحداهن مفسرةً:

«جديدة».

«آه مانا عرفت»، ثم أردفت بابتسامةٍ صفراء:

«طب قعدوها... دي شكلها بنت ناس!»

ارتبكت النزيلات يُحاولن خلق مساحةٍ كافيةٍ لهاجر، انضغطت الأجساد أكثر؛ حتى قالت السيدة الخمسينية الأنيقة وهي تشير إلى هاجر:

«تعالي هنا!»

استجابت هاجر على الفور، وقد ارتاحت للنبرة الراقية التي تكلمت بها السيدة، فجلست بجوارها واضعةً كيسها فوق ركبتيها في صمتٍ.

سألتها السيدة بصوتٍ هامسٍ:

«هو إنت هنا علشان قتلتي حد فعلا؟»

«أنا ما قتلتش حد والله، واحد زميلي اتقتل، وهمه بيقولوا إنها أنا».

لم تعقِّب السيدة ولم يبد عليها الاهتمام بما قالت هاجر، بل بدأت بسرد مأساتها الخاصة بصوتٍ رفيع النبرات:

«أما أنا بقى فما فيش أسوأ من اللي حصل لي... إنت عارفة؟ أنا كنت خلاص طالعة على المطار؟ والشنط معايا في العربية، المحامي كلمني وقالي تعالي بس احضري الجلسة، يا هتاخدي تأجيل، يا براءة، سمعت الكلام، ورحت، ويا ريتني ما رحت، بدل ما أطلع على المطار، جيت على هنا، ادوني حكم، تصوري! ومش بس كده، ده ما فيش مكان ليا في سجن القناطر، فحجزوني هنا لحد ما يفضُّوا مكان، تصوري! مش بأقولك اللي حصل لي فظيع!»

كانت هاجر تستمع إليها في صمتٍ، وقد بدأ الإرهاق يتمكَّن منها، وجدت نفسها تغفو على كتف السيدة دون أن تشعر، فاستفاقت سريعًا واعتذرت لها في وجلٍ.. ربَّتت السيدة على كتفها قائلةً:

«ولا يهمك، ما هو ما فيش نوم هنا إلا كده، الحمد لله إننا مش رجالة.. تصوري، حجز الرجالة القعاد فيه بالدور، ولو ما عكيش فلوس ما تقعديش! نامي على كتفي براحتك ما فيش مشكلة، شوية ونبدل».



استيقظت هاجر على صوت دقاتٍ شديدةٍ أفزعتها. للوهلة الأولى لم تُدرك أين هي، ثم بعد أن ميَّزت مكانها، لم تُصدق أنها نامت بالفعل وسط هذه الظروف، نظرت حولها فوجدتهن يقفن واحدةً

تلو الأخرى على إثر تلك الطرقات، رنت إلى السيدة متسائلة، فقالت وهي تمد لها يدًا: «ده التمام!»

ظلت هاجر تنظر إلى السيدة في عدم فهم؛ فأوضحت:

«هيطلعونا ينادوا أسامينا ويدخلونا تاني».

فُتح الباب وخرجن جميعًا، ودخلن غرفةً مجاورةً، مربعة الشكل، عاريةً من الأثاث إلا من مقعدٍ خشبي واحدٍ في المنتصف.

سمعت صوت حفيفٍ من جانب الغرفة فنظرت لتجدَ قفصًا حديديًّا صغيرًا يحتل الركن، وبداخله رجلان وقد انضغط جسداهما في بعضٍ من ضيق المساحة فتماهت الأعضاء ولم يعد معلومًا أي جزء يتبع لمن.. سألت زميلتها عنهما، فأجابت في بساطةٍ:

«دول تأديب!»

أقبل الضابط وجلس على المقعد الأوحد يُنادي الأسماء في ضجرٍ، فتنظر صاحبة الاسم في الأرض، وترد في خفوتٍ:

«تمام يا فندم»، ثم تتحرَّك رجوعًا إلى غرفة الحجز.

لم تهتم هاجر بالنظر في وجوههن، ولم تُحاول ربط تلك الوجوه بالأسماء التي يُناديها الضابط، حتى تلجلج الضابط وهو يُحاول نطق اسم ما:

«سنجا... ااايتيما... آآآ»، ثم بتر الاسم في حنقٍ، رفعت هاجر رأسها في فضول فوجدت الضابط ينظر لإحداهن ويشير بيده؛ نظرت إليها هاجر فوجدتها فتاة شرق آسيوية ضئيلة الجسم، لم تنتبه لوجودها معهن من قبل. نادى الضابط:

«هاجر!»

وقبل أن ترد هاجر، سمعت صوتًا يقول:

«تمام يا فندم»، ووجدت سيدةً أربعينيةً تتقدم.

أهناك هاجر أخرى؟ كان اسمها نادرًا دومًا، غريب أن يكون هذا هو المكان الذي يُكتب لها أن تجتمع مع هاجر أخرى فيه.

«هاجر عفيفي».

قالت في سرعةٍ:

«تمام يا فندم»، ثم نظرت في الأرض مثلهن وخرجت، إلى الحجز مجددًا...

14

لا شيء

تكوَّمت هاجر على أرض غرفة الحجز، تسترق السمع علَّها تلتقط أصوات أذان الجمعة أو خطبتها، ولكن الغرفة كانت معزولة تمامًا، لا شيء يتسرب إليهم من الخارج، لا أصوات بشر، لا أبواق سيارات، ولا حتى ذرَّات من نور.

عادت بذاكرتها إلى الجمعة السابقة، والتي انقضت بالروتين المُعتاد لها مع إبراهيم والبنات.

تصحو هي قبل الجميع، تُعد إفطار الجمعة من الفول والبيض، وتقلي عجينة الطعمية الجاهزة التي تشتريها خصيصًا من الإسكندرية وتحتفظ بها في أكياس في الفريزر لصباحات الجمعة، فصباح الجمعة هو أكثر أيام الأسبوع حظا من الروائح الشهية.

تصحو حبيبة، ثم زينة، فتكلِّفهما بإيقاظ أبيهما؛ تلك المهمة المستحيلة التي دومًا ما تبوء بالفشل، فلا تجد هي بدًّا من إيقاظه بنفسها مستخدمة العبارة ذاتها كلَّ مرة:

«اصحى يا إبراهيم... الفطار جاهز... كده الصلاة هتفوتك... حرام عليك»

يستيقظ إبراهيم متثاقلا وينضم لهن على سفرة الإفطار، فتأتيه بالقهوة التي تضعها هي على النار من قبل الإفطار كي تستوي على مهل.

ينزل إبراهيم إلى الصلاة، وتبدأ هي مع البنتين حلَّ الواجبات المدرسية، وحفظ الأناشيد وترديد الآيات. يتأخر إبراهيم كعادته بعد الصلاة، يقف مع الرجال أمام المسجد فترةً لا بأس بها، ثم يعود، لا إلى البيت، وإنما للبيت الذي يُقابله، بيت جارتها العزيزة تيتي، حيث يلعب البلاي ستيشن مع زوجها سامح حتى موعد الغداء.

يتناولون غداء الجمعة في بيت حميِّهم بالشيخ زايد، تجمعهم منى على سفرة لطيفة من الأسماك، فمنى لا تُحب المطبخ، وعادل يحب الاجتماع مع أبنائه وأحفاده كل جمعة، فكانت الأسماك الجاهزة مع الأطباق البلاستيكية ذات الاستعمال الواحد هي الحل المُرضي لكل الأطراف.

في تلك الجمعة السابقة لم تأت نسرين، كانت لديها مناوبة في المستشفى الجامعي، أتى طلعت بأبنائهما: تميم وسلمى، وكالعادة ظلَّت كل الوجوه موجَّهة صوب شاشات الهواتف الذكية، حتى إبراهيم، الذي كان مصدر النكات والضحكات في اجتماع العائلة، بدا شاردًا ملولًا، وكأنه ينتظر نهاية اليوم بفارغ الصبر.

أم كانت هي الشاردة؟

كانت ولا شك تُعاني مللًا مجهول المصدر منذ عدة أسابيع. حاولت تجاهله في البداية، ولكنه ظلَّ يتنامى بداخلها، مطالبًا بتغييرٍ ما، بأي شيءٍ جديدٍ في الحياة.

في لحظاتها المُعتمة تلك، تقرَّب هاني...

أتى لها بوردةٍ في صباح أحد أيام العمل، وعندما أبدت استغرابها، قال إنها كانت على وشك السقوط من على شجيرةٍ في مدخل الوزارة، فأنقذها وقرَّر تقديمها لأول شخص يراه، فكانت من نصيبها.

قبلت هاجر تفسيره، فهي لم تكن متأكدةً أنه قد التقى بعلا قبلها، وبالتأكيد لم تتعمَّد علا أن تحدجها بتلك النظرة!

بعدها بعدة أيام، أتى لها هاني بعلبةٍ صغيرةٍ بها رنجة مخلوطة بالطحينة والليمونً والبصل الأخضر، تلك الأكلة التي تعشقها ولا تجد مَن تُشاركها معه، إذ يعتبرها إبراهيم أكلة مقرفة ذات رائحة منفرة، ويرفض حتى فكرة دخولها المنزل، مطلقًا عليها اسم: «السمك المعفن».

قدَّم لها هاني الرنجة قائلًا إنها من أخته سمر؛ قبلت هاجر الرنجة، فما ذنب سمر أن ترفضها؟ هي لم تكن قد رأت سمر من قبل، ولكنها سمعت الكثير عنها من هاني، عن أكلةٍ لذيذةٍ طبختها لهم، أو عن علقةٍ جديدةٍ تلقتها من زوجها.

كان هاني رافضًا لتلك الزيجة، لا يُحب فتحي، ولا يريد أن تتزوج أخته من ميكانيكي، كان يأمل أن تتزوج سمر شابًّا متعلمًا يعمل في وظيفةٍ مرموقةٍ، خاصة وهي جميلة يطلبها الخطَّاب، ولكنه لم يستطع منعها عن فتحي، إذ كانت متيمة به، ومصرَّة على الزواج منه حتى ولو بالهرب من المنزل.

وهكذا، استسلم هاني، بل وترك لها منزل أسرته بالطوابق كي تتزوج فيه بدلًا من أن تعيشَ مع فتحي في بيت أسرته، وانتقل هو إلى شقةٍ بالإيجار في منطقة الشيخ زايد، وحجز أخرى في مشروع لشقق الشباب، استلمها مؤخرًا وانتقل إليها.

كان يحكي لهم في المكتب عن شقته الجديدة، وشرفتها الواسعة التي تطل على حديقةٍ مليئةٍ بالورود، وعن مشهد غروب الشمس من الشرفة مع كوبٍ من الشاي بالنعناع.

يا له من مشهدٍ رائقٍ، لا يُشبه في شيء المشهد الذي تُطل عليه نافذة شقة هاجر المُتهالكة بذلك الشارع الضيِّق المتفرع من شارع الهرم. شقة متواضعة بنظام الإيجار القديم، لجأوا إليها مؤقتًا حتى ينتهوا من تشطيب شقتهم في بيت حميها، فامتدت الـ«مؤقتا» لسبع سنوات، ولم يبد أنها ستنتهي قريبًا.

عادت في ذلك اليوم ترجو إبراهيم أن يُعجِّل من إجراءات التشطيب والنقل فقد اختنقت من الشقة الصغيرة والشارع الضيق بأتربته وعوادمه وعراك سكانه. قابل رجاءها بسخريةٍ مذكرًا إياها بمصروفات المدرسة، والبيانو الذي أصرَّت على الاشتراك بنصف راتبها في جمعيةٍ من أجل شرائه، فسكتت.

أرادت أن تذكِّره بالبلاي ستيشن فور التي قرَّر أن يشتريها هو بكلِّ أريحية، ولكنها اختارت أن تسكت، ولكن نفسها لم تسكت عنها...

بل رسمت لها غروبًا، ونثرت لها ورودًا، وأغرقت بمذاق الشاي الحلو حليمات لسانها الجافة.

15

40× 40

انتفضت هاجر من ذكرياتها على صوت طرقات الباب الحديدي، كانت تظن أنها ستعتاد عليه مع الوقت، ولكنها لم تفعل، فكلما سمعته اضطرب قلبها رغمًا عنها.

دوى صوتُ الأمين الجهوري:

«هاجر... زيارة»

وقفت هاجر من فورها، تزامنًا مع صوتٍ ملولٍ يتساءل:

«هاجر مين؟»

لقد نسيت هاجر أنهن اثنتان هاجر بالغرفة.

نظرت إلى الأمين في أملٍ، فردَّ متأففًا:

«هاجر عفيفي».

خرجت هاجر لتجد وجه نسرين الحبيب مجددًا.

أقبلت عليها نسرين تحتضنها بشدةٍ حتى انتحبت. انتظرت في صبرٍ حتى سكت عن هاجر البكاء، فأبعدتها عنها وقالت دون مقدماتٍ:

«هاجر لازم تساعدينا، لازم تفتكري أي حاجة وكل حاجة عن الليلة إياها».

ظهر الخوفُ في عيني هاجر، وقد أدركت أن الوضعَ بالخارج لم يزل على ما هو عليه.

ماذا كانت تتوقع؟ أخبارًا مُفرحة؟

«ما تقلقيش، كله خير بإذن الله، بس إحنا محتاجين مساعدتك».

«والله ما قتلته يا نسرين».

«أنا متأكدة يا حبيبتي وما عنديش أي شك، بس النيابة مش هتعترف غير بالأدلة، وللأسف الأدلة كلها عليكي»

«زينة وحبيبة؟»

«كويسين يا هاجر، في عينينا، المهم إنت يا حبيبتي، عايزينك تخرجي بسرعة».

«يلا يا هوانم، الزيارة خلاص كده».. قالها الأمين بصوته الغليظ.

«يا هاجر، فكَّري، لو مش إنت يبقى مين؟ مين اللي عملها؟ مين كان سهران ليلتها؟ مين بينه وبين هاني عداوة... مين؟»

«مش عارفة.. مش عارفة».

«طب، فكري بالراحة، اتفقنا؟»

«ما قلنا خلاص الزيارة انتهت».. قالها الأمين وهو يتجه نحو هاجر التي تراجعت آليا نحو غرفة الحجز وهي تقول لنسرين:

«كلِّمي منار، زميلتي في المكتب، هي بتبقى عارفة حاجات كتير، كلميها واسأليها!».

«طب محتاجة إيه أجيبهولك معايا؟»

«مية بس»

«حاضر».

توارى وجه نسرين وراء جسد الأمين المفتول، وتوارى معها الاطمئنان اللحظي الذي شعرت به هاجر.

حاولت أن تأخذ بنصيحة نسرين وتسترجع تفاصيل الليلة المشئومة، إلا أن ذهنها كان محتلا بالبلاطة التي باتت تسكنها.

أنين عظامها المدمجة وصقيع الأرض كانا يحتجزان أفكارها أسيرةً في مساحة الـ٤٠ سم × ٤٠ سم.



لم تكد نسرين تعبر بوابة الخروج من القسم حتى كانت تُجري اتصالاتٍ محمومةً للوصول لمنار.

هاتفت إبراهيم فلم يرد، أصرَّت على المحاولة، وأصرَّ هو على تجاهلها، بحثت باسم هاجر على هاتفها علها تجد أية شخصيات مشتركة، وجدت رقم تيتي جارة هاجر، اتصلت بها، كانت تيتي متلهفةً على سماع أية أخبار عن جارتها، طمأنتها نسرين وأخذت منها رقم منار.

بعد عدة دقائق كانت نسرين قابعة في سيارتها بانتظار منار، خرجت منار من باب عمارتها، وجلست بجوار نسرين، فانطلقت الأخيرة بالسيارة.

«أنا مش عارفة أشكرك إزاي يا منار إنك نزلتي بالسرعة دي».

«ما تقوليش كده، امسكي دي الأول!».

«إيه دي؟».

«علبة فيها محشي، أمانة عليكي توصليها لهاجر، كان نفسها ف المحشي بتاعي، وأنا كنت وعداها، بس مش هاقدر أزورها، جوزي بقى وكده».

ابتسمت نسرين وهي تأخذ منها العلبة وتضعها على أريكة السيارة الخلفية.

«مش مهم الزيارة، المهم تقوليلي أي حاجة تساعدنا نخرجها... مين اللي عمل كده يا منار؟»

«أنا هاتجنن من ساعة ما عرفت... ميت حد ممكن يكون عمل كده، بس في نفس الوقت، ما فيش حد معين ممكن أقول هو...».

«راجعي معايا الله يكرمك، إنت الأمل الوحيد قدامنا، الزيارة بتبقى دقيقتين، مش عارفة أتكلم مع هاجر خالص».

«أنا تحت أمرك».

«قوليلي مين كان موجود يومها».

«إحنا ٨ في المجموعة، أربعة في مكتبنا، أنا وهاجر وهاني وعاطف، و٣ في المكتب اللي جنبنا، علا وعفاف وسيد، ورابعهم الأستاذ مرسي مدير الإدارة».

«وعبير، اللي شهدت على منار؟»

«عبير دي عاملة نظافة، طيبة وغلبانة قوي، تبقى مرات عطية، عامل البوفيه، بتجيب معاها بنتها صابرين كل يوم وبتسيبها ف حضانة الشركة».

«إيه اللي يخليها تسهر لحد متأخر كده؟».

«أيام الميزانية، كل واحد من بتوع النظافة بيبقى عليه وردية يسهر يوم ف الأسبوع يشوف طلبات الموظفين السهرانين، الأربع كان يوم عبير».

«بس مش غريبة تسهر ببنتها الصغيرة لحد متأخر كده؟ جوزها ليه ماخدش البنت معاه وهو مروح؟».

«إحنا اتكلمنا مع عبير كتير في الموضوع ده، بس هي متعلقة بالبنت وما بترضاش تسيبها حتى لأبوها».

«كلكم كنتم موجودين يومها؟»

«آه كلنا... بس أستاذ مرسي ما جاش يوم الأربع، بلغ مرضي، وعرفت بعدها من عفاف زميلتنا إنه أكل حاجة مش مضبوطة وتعب جدا، وراح المستشفى يعمل غسيل معدة، وحتى ما قدرش ييجي تحقيق النيابة يوم الخميس».

«طب هاني كان طبيعي يومها؟ حصل مشاكل بينه وبين حد؟»

«ما شفتوش قوي يومها، جهازه كان بيتصلح فكان أغلب الوقت ف الأوضة التانية، عفاف خدت إذن وروحت بدري وهو قعد يشتغل على جهازها».

«هو عموما علاقته إيه بالناس؟»

«هاني- الله يرحمه- كان ذوق ومجامل وجدع ف العموم، علاقته كويسة بالكل، له تكات صغيرة زي أي حد، بس ما فيش حاجة كبيرة».

«تكات زي إيه؟ احكيلي على كل حاجة، حتى لو عبيطة!».

«كان مثلا دايمًا يتريق على عاطف علشان قصير وجسمه قليل، كان مسميه فروج القِلة، ويقوله مش عارف مراتك إيه اللي عاجبها فيك، وحاجات كده».

«وعاطف؟»

«ساعات كان ياخدها بهزار، وساعات كان يقفش ويتضايق، بس من كام يوم، عاطف كان متخانق مع مراته وبيحكيلنا، فهاني فضِل يتريق، عاطف وشه جاب ألوان، حسيته هينفجر، اتدخلت وسكّت هاني، أصل مرات عاطف أمورة وشيك، وهاني كان دايمًا يقوله إنها مش لايقة عليه، وده كان بيجنن عاطف».

«طب، هل ده سبب كافي إن عاطف يقتل هاني؟»

16

عَلاقات مُريبة

شهقت منار قائلةً:

«يقتل؟ لا طبعًا، يقتل إيه؟»

تفرَّست نسرين في وجه منار الذي شحب، ثم قالت بجديةٍ:

«إحنا بنتكلم على جريمة قتل، أيوه، وبندور على حد يكون قاتل».

أخذت منار نفسًا عميقًا، وهي تقول:

«أيوه أيوه، بس ماعتقدتش عاطف يقتل، ده طيب قوي، ما يقدرش يقتل دبانة، ومش بس هاني اللي كان بيضايقه، ده ياما مراته قالت وعملت، كل اللي بيقدر عليه إنه يشتكي لنا، حتى أستاذ مرسي، دايمًا يشيِّله هو الشغل الزيادة دونًا عن باقي الزملا، وعاطف ما بيقدرش يبق معاه، آخره يفضفض معانا بكلمتين وخلاص».

«طب والباقيين؟»

«هاني وعفاف عاملين زي القط والفار، هي لسانها مسحوب منها وهو بيرد عليها وما بيسكتش، بس آخر كم يوم كانت بتحاول تجر معاه ناعم».

«إيه المناسبة؟»

«أصل الخاتم الدهب بتاعها كان اتسرق من المكتب من فترة، وهاني قالها إنه دخل على السيستم بتاع الكاميرات وعرف مين اللي أخده، بس مسح الشريط علشان يستر عليه».

«يا سلام! فيه حاجة اسمها كده؟»

«أهه عفاف مصدقاه يا ستي، وكانت عمالة تتحايل عليه علشان يقولها مين، وهو مش راضي، بس الغريبة إنه رجَّعلها الخاتم فعلًا».

«يبقى هو اللي كان سارقه».

«شكِّيت ف كده، بس جوزي قالي لو هو اللي سارقه هيرجعه ليه؟».

«معاه حق، طب إيه؟»

«هو بيقول إنه عرف الحرامي من الكاميرا وراح هدده إما يرجع الخاتم أو يفضحه، فرجعله الخاتم، وكان بيقول لعفاف إنت عايزه إيه طالما الخاتم رجعلك، وإننا المفروض نستر على بعض، بس طبعًا هي هتموت وتعرف مين».

«هي دي أول مرة تتسرق منكم حاجة؟»

«مش أول مرة، علا اتسرق منها موبايل من كام شهر، وأنا اتسرق مني باور بانك من فترة، وسكتنا، عفاف هي اللي قُطتها جمل، ودي مش قطة، ده خاتم دهب».

«فهمت، طب وأستاذ مرسي؟»

«علاقته بهاني سمن على عسل، ما تفهميش ليه، دايمًا يطلعه مأموريات ويمضيله أجازات ومظبطه ع الآخر».

«طب وعلاقة هاني بعلا؟»

«هو علاقته بالستات كلها حلوة، لسانه بينقط عسل ودايمًا بيجامل ويساعد، هو يعرف جوز علا، عملوا بيزنس مع بعض، ومتهيالي خرجوا كذا مرة سوا، علا كمان كانت بتهتم بيه وساعات تجيبله أكل، بالذات من ساعة ما نقل الشيخ زايد وبقى عايش لوحده».

«وسيد؟»

ابتسمت منار قائلةً:

«سيد ده بير غويط، في الظاهر علاقتهم كويسة وما فيش مشاكل، ساعات سيد يلقح كلام إنه الأستاذ مرسي مفضل هاني علينا وبيديله المأموريات وإنه عارف ليه بس مش عايز يتكلم وربنا أمر بالستر، بس في الفترة الأخيرة حاسة علاقتهم هديت وما بقاش فيه مشاكل».

«كلامك حيرني أكتر يا منار، كأنك بتقولي ما فيش حاجة بينه وبين حد، وف نفس الوقت احتمال يبقى فيه حاجة بينه وبين كل واحد فيكم».

«هو الصراحة المرحوم كان يحيَّر».

«اشمعنى؟»

«كان بيلبس شيك، وف نفس الوقت من عيلة متواضعة، وبيتهم في منطقة عشوائية، وأخته متجوزة ميكانيكي، وف الشغل، ما كانش شاطر خالص، بس كان سالك كده وأموره ماشية، علاقته بالناس كلها كويسة وبيجامل ويستجدع، وف نفس الوقت له تكَّات مش مريحة».

«يا حبيبتي يا هاجر، كان مستخبيلك فين ده كله».

«آه والله».

«هو علاقته بهاجر كانت إيه؟»

«زي ما قلتلك علاقته بالستات حلوة، ساعات بأحس إنه كان بيعز هاجر معزة لوحدها، يعني كان بيتكلم معاها وعنها باحترام، غير طريقة كلامه مع عفاف وعلا مثلا، أو حتى كلامه عنهم وهمه مش موجودين».

«يعني... يعني تفتكري اللي عبير شافته صح؟»

طرفت منار بعينيْها واحتارت في الرد.

«ما تخبيش حاجة يا منار الله يكرمك، حتى لو حاجة وحشة، لازم أعرف».

«لا والله مش قصدي خالص، أصل أنا ما شفتش حاجة زي كده أبدًا، ولا كان يخطر ف بالي، أينعم هو كان ساعات بيركز مع هاجر بزيادة، وساعات هي كان يبان عليها الانبساط، بس مش أكتر من كده... ده أنا حتى متهيالي كان فيه فتور بينهم ف الفترة الأخيرة».

ذكرت الفتور كي تطمئن نسرين، فلم تتوقع ردَّها حين تساءلت بقلقٍ:

«فتور؟ معنى كده إن قبل الفتور ده كان فيه علاقة قوية؟»

«لا، مش قصدي... آآآ»

قاطعتها نسرين:

«وممكن يكون الفتور ده سببه مشكلة حصلت بينهم مثلا؟»

«لاا، ما عتقدتش كده خالص، هاجر شفافة قوي يا نسرين، وإنت أدرى بيها، لو كانت حاجة حصلت كانت هتحكي، ع الأقل ليكي، هي دايمًا تقول إنها مش بتخبي عنك حاجة».

غُصة غزت حلق نسرين وهي تتذكر اسم هاجر الذي ظهر على شاشة هاتفها وتعلوه عبارة: (المكالمات الفائتة)، تلك المكالمات التي لم ترد عليها لانشغالها...

خبطت نسرين على مقود السيارة بغتةً وهي تهتف في حرقةٍ:

«والله والله لأخرجك يا هاجر، مهما كان التمن».

استغربت منار فورة نسرين المفاجئة بعد نبرتها المتعقِّلة طوال حديثهما، فقالت مهدئةً:

«ما تقلقيش، إن شاء الله نلاقي اللي عملها وهاجر تخرج بالسلامة».

أمَّنت نسرين على كلامها محاولةً تمالك نفسها وهي تسأل:

«بيقولوا إيه عندكم ف الشركة؟».

«إمبارح مشينا بعد التحقيق، النهاردة وبكرة أجازة، على يوم الأحد هتبتدي الحكايات».

«طب مش هاوصيكي، كلميني أول ما تعرفي أي معلومة حتى لو بسيطة».

أعادت نسرين منار إلى منزلها، ثم أخرجت هاتفها وسجَّلت لنفسها مقاطع صوتية لخَّصت فيها كل ما سمعته من منار، علَّها تصل إلى شيء.

أنهت التسجيل، ثم استمعت لما سجَّلته في تركيز وكأنها في جلسة عصف ذهني بينها وبين نفسها، ثم هتفت في انتصارٍ:

«هو، ما فيش غيره».

وضغطت على زر الاتصال.

17

في علبة السَّردين

مرَّ نهار الجمعة على هاجر في الحجز مريرًا، ما بين فكرٍ يُؤرقها، وبين أنَّات جسدٍ يُعاني.

استرقت هاجر النظر إلى ساعة صاحبتها، فوجدتها تُشير إلى الرابعة، وقفت ورفعت يديْها كي تُصلي العصر، فشعرت بربتةٍ خفيفةٍ على كتفها، انتبهت لتجدَ إحدى النزيلات تهمسُ لها في استعطافٍ:

«سايقة عليكي النبي لتدعيلي وإنت بتصلي، قولي يسرية بنت نعيمة».

رقَّ قلبُ هاجر...

عفوية السيدة ورجاؤها فيها كانا بمثابة ومضة نور مُفاجئة وقعت في قلبها فأضاءت قليلا من جنباته المُعتمة.

أومأت لها برأسها وأشفعت إيماءتها بابتسامةٍ رفيقةٍ، وبدأت في الصلاة.

شغلت عبارة يسرية بال هاجر أثناء صلاتها، وتساءلت في فضولٍ عن جُرمها، ثم ملأ رأسها سؤالٌ أكبر، ما هو الجُرم الذي فعلته الثلاث والثلاثون نسوة الأخريات، كي يُشاركنها المكان.

كانت بطة بالخارج، فوجدت ـ لدهشتها ـ النزيلات يفسحن لها فُرجةً صغيرةً كي تسجد. استقرَّت جبهتها على الأرض الباردة وبدأت تدعو ليسرية، ثم غلبتها شِقوتها فانفجرت في البكاء والنهنهة ومناجاة الله.

تركت نفسها لمدةٍ لا تعرف طولها، حتى سكت عنها البكاء، فرفعت رأسها واستقامت، واضعةً كفيها على موضع القلب منها، وأكملت صلاتها مطمئنةً حتى سلَّمت.

جعلها فضولها تجاه يسرية تسلِّم أذنيها لما تسمع من ثرثرة النزيلات، كي تعرف عنهن أكثر...

ويا ليتها لم تعرف!

فبخلاف السيدة الأنيقة التي أتت في قضية أموال عامة، وهاجر الأخرى التي علمت أنها شيك بدون رصيد، وبخلاف بطة التي يُقال إنها أتت في قضية بلطجة، وسيدة رابعة سفعاء الخدين جاحظة العينيْن، وجهها أقرب إلى مومياء حيَّة، علمت هاجر أنها متهمة في قضية مخدرات.

بخلاف هاته الأربع، كانت الباقيات تسعًا وعشرين نزيلة، كلهن قضايا آداب.

مرَّرت عينيْها بهن، تسع وعشرون امرأة، باختلاف السن والشكل والدوافع، قد أتين في قضايا آداب، حتى الأم وابنتها، كانتا هنا في قضية آداب.

لم يبد أنهن فخوراتٌ بما فعلن، بل بدا وكأنهن مضطرات، وكأنهن يتمنين لو لم يسلكن هذه الطريق.

تأثرت هاجر بهذه الفكرة وتساءلت:

هل ظلمن أنفسهن؟ أم ظلمتهن أقدارهن؟

وهل تظلم الأقدار؟

هل ظلمها قدرُها عندما أتى بها بين هذه الجدران؟

هي لم تفعل شيئًا، بل بالعكس، هربت من الذنب عندما كشَّر لها عن أنيابه.

أم أنها...



استفاقت من أفكارها على صوتِ الحديد المُرتطم مجددًا، وانفتح الباب. ظهرت امرأة، مموهة المعالم بسبب الإضاءة الآتية من خلفها. دلفت إلى الغرفة بخطوتين وانغلق الباب. فوقفت وجلة، تمامًا كما وقفت هاجر منذ عدة ساعات.

«يووووه... واحدة جديدة... همه إيه؟ فاكرينها علبة سردين».

«معلش يا ختي، قعدوها دي شكلها غلبانة ومش وش إقسام».

بدأت الأجساد تُحاول الانضغاط من جديد حتى ظهرت فُرجة صغيرة بجوار هاجر، فقالت إحداهن للفتاة:

«روحي اقعدي هناك!».

نظرت الفتاة باحثةً عن المكان الذي يقصدون، فأشارت إليها هاجر.

اقتربت منها الفتاة، التي كانت ترتدي عباءة رمادية فضفاضة، وطرحة وردية كبيرة، رفعتها من طرفها وشبكتها بدبوسٍ إلى كتفها.

جلست الفتاة بجوار هاجر، فسألتها إحداهن:

«جايه ف إيه يا حلوة؟».

«شكلها سياسة، أكيد اتمسكت ف مظاهرة».

«يخيبك يا كوريا، هو لسه في مظاهرات، ما وقفت من زمان».

«إنت ممسوكة ف مظاهرة يا بت؟».

«هي ما بتردش علينا ليه، إنت خرسا؟».

ربتت هاجر على الفتاة مطمئنةً ومشجعةً، فقالت:

«جوزي محبوس بقاله كذا سنة، وإمبارح منعونا من الزيارة، قعدت قدام باب السجن وحلفت مانا ماشية غير لما يدخلوني، حاولوا يمشوني ما رضيتش، قاموا جابوني على هنا».

«معلش»، قالتها هاجر بتأثر، فنظرت إليها الفتاة، توقعت هاجر أن ترى في عيني الفتاة انكسارًا أو خوفًا، ولكنها وجدت في عينيْها مزيجًا غريبًا من الثبات والتحدي، وربما لمحة من القسوة.

ابتسمت لها الفتاة وهي تقول:

«أنا متعودة من أيام المسيرات، ما تشغليش بالك».

ثم مدَّت إليها يدها في ثقةٍ قائلةً:

«أمنية، وإنت؟».

«هاجر».

«بقالك كتير هنا؟».

«جيت إمبارح».

«ف إيه؟».

احتارت هاجر بماذا ترد، ومن أين تبدأ، لكن بساطة أمنية وثباتها كانا بمثابة مؤجج للفضفضة، خاصة مع إغراء الحكي للغرباء المُعفى من ضريبة التذكرً لاحقا، فانطلقت تحكي لها حكايتها منذ البداية.

18

ع القهوة

أغلقت منار باب شقتها لتسمعَ صوت زوجها:

«إنتي جيتي يا منار؟ شاي بقى مع الحاجة الحلوة».

خلعت منار طرحتها، وبدأت في إعداد الشاي. حملت الصينية وعليها الأكواب مع طبق الكعك بالتفاح والقرفة الذي يهواه زوجها وتصنعه هي ببراعة، وضعتها على الفراش بجوار زوجها وجلست هي على الجانب الآخر من الصينية.

«ها عملتي إيه؟ إوعي تكوني رحتيلها».

تأففت منار:

«ما رحتش، أكيد مش هاروح بعد ما قلتلي لأ».

تطاير فتات الكعك من فم زوجها وهو يقول:

«معلش يا حبيبتي، إنت عارفة جوزك ضابط، والحاجات دي بتبقى محرجة وممكن تئذيني في شغلي».

«إنت عارف إني مش مقتنعة بالكلام ده، بس حاضر هاريحك».

ارتشف رشفة من كوب الشاي وهو يقول:

«طب احكيلي كده وأنا هاحاول أساعدك بخبرتي».

«أحكيلك على إيه؟ مانا حكيتلك إمبارح».

«لا يعني بنت عمها ولا خالها دي قالتلك إيه؟»

«بنت خالتها وما قالتش حاجة، كانت بتسألني».

طقطق بلسانه متلذذًا بالكعكة:

«الكيك بتاعك ده معجزة، والله لازم يتعمل له براءة اختراع».

ابتسمت منار كعادتها كلما مدح أحد ما تصنع من طعام، ولكن ابتسامتها سرعان ما تبددت مع تعليق زوجها:

«بس مين كان يصدق إن كل ده يطلع من هاجر».

وقفت منار غاضبةً:

«نعم؟».

«إيه إيه إهدي، مش إنت اللي بتقولي؟».

«عصام... أنا ما قلتش كده، وقطع لسان اللي يقول كده، بُكرة ربنا يظهر الحق».

«طب اقعدي اقعدي، مش أنا طول عمري أقولك الواد هاني ده مش مريح، وإنت كنت تقوليلي حرام عليك ده طيب».

لانت منار وهي تعترفُ بكلامه:

«أيوه، بس برضه مش هاجر».

«أومال مين؟».

ذات السؤال الذي سألته نسرين...

قطعت عليها حيرتها رنة هاتفها، وجدت اسم نسرين فردت:

«أهلا يا دكتورة».

«.....».

«حاضر يا... يا نسرين... خير؟».

«....».

«لا، طبعًا... قلتلك مش ممكن».

«....».

«طيب حاضر».

«....».

«حاضر حاضر، هاكلمها وأرد عليكي».

«....».

أغلقت منار الهاتف وشردت، بينما كانت عينا عصام تلمعان بالفضول:

«كانت بتقولك إيه؟».

انتبهت منار على سؤال زوجها فردَّت بصوتٍ مترددٍ:

«هي شايفة إن عاطف اللي عملها».

«عاطف»، هتف عصام باستنكار، ثم سألها:

«بمناسبة إيه؟».

«أنا حكيتلها على علاقات هاني بالكل، وقلتلها إنه كان دايمًا بيتريق على عاطف».

«ما كل المصريين بيتريقوا على بعض».

«هي بتقول إنه طالما ما كانش بيرد ولا بياخد حقه أول بأول يبقى بيكتم جواه، وإن دي شخصية القاتل النموذجية، يكتم وينفجر فجأة».

«يا سلاااام!».

تجاهلت منار سخريته، وأكملت:

«عايزاني أكلم مراته أسألها كان فين يوم الحادثة».

«هو قال إيه في التحقيق؟».

ردَّت شاردةً:

«قال إنه كان مع مراته وبنته عند الدكتور».

«طب يلا كلميها!».

توترت منار من نبرة الحماسة في صوته، وأمسكت بهاتفها محتارةً، فقال مشجعًا:

«يلا.. بس بصي، ما تسأليهاش بشكل مباشر، أكيد مش هتورط جوزها، اخترعيلك أي سبب».

علقت منار بابتسامةٍ باهتةٍ:

«ضابط بصحيح»، ثم عبست حائرةً:

«طب أقول إيه؟».

«التمارين، اسأليها على تمرين السباحة، مش كنت عايزة تمرني حلا مع بنتها!».

«أيوه صح».

اتصلت منار بزوجة عاطف، وتحركت بالهاتف إلى خارج الغرفة متجاهلةً نداءات زوجها بالعودة، ثم عادت بعد عدة دقائق شاحبة الوجه.

«إيه، فيه إيه؟».

«عاطف ما كانش معاهم عند الدكتور».

«هي اللي قالتلك كده؟».

«أنا عملت زي ما إنت قلت، سألتها ع التمارين وقعدنا نرغي شوية، كانت بتشتكيلي إن البنت عيانة وبقالها كذا مرة مش بتروح التمرين، وإن عاطف كالعادة ما جاش معاها عند الدكتور بحجة إنه سهران ف الشغل».

«بس عاطف على كلامك ما كانش سهران في الشغل».

«أيوه».

«هو قال إيه في النيابة؟».

«قال إنه وصلهم للدكتور واستناهم تحت في العربية، مراته بقى بتقول إنه قعد يبوس إيديها علشان تقول إنه كان معاها ليلة الحادثة، وإنها وافقت بس علشان البيت ما يتهدِّش، إنما مستحلفاله».

«هو قالها كان فين؟».

«والله ما فهمت حاجة، أصل عاطف ده دايمًا بيتهرب من مراته ومامته، الاتنين، ويلبس طاقية دي لدي علشان يقعد هو ع القهوة مع أصحابه».

«بس لو كان ع القهوة ساعتها ما قالش كده ليه ف التحقيق؟ ما القهوة مليانة ناس يشهدوا إنه كان موجود».

تغير وجه منار وانقبضت ملامحها وبدا كأنها تذكرت شيئًا.

«إيه يا منار، فيه إيه؟».

«عاطف... يوم الحادثة».

«ما له؟».

«كأني شايفاه قدامي، هاني عمال يتريق عليه...».

«ما ده العادي».

«لا، عاطف ما كانش عادي».

«ليه، قال إيه؟».

«ما قالش حاجة خالص... كان ساكت وهاني عمال يتريق، بس عروق رقبته كانت عمالة تطلع لبره، وإيده، أيوه، أنا فاكرة منظر إيده كويس، كان عمال يغرس بضوافره ف إيده التانية لحد ما احمرِّت. كان متعصب قوي... عمري ما شفته كده».

«يعني معقولة يكون عاطف؟ هو فعلا شخصيته دي من النوع اللي يستحمل ويسكت وفجأة الغضب يعميه وينتقم انتقام جبار زي الفيلم الهندي اللي شفناه إمبارح».

صمتت للحظة متفكرة، ثم زفرت في يأسٍ وهي تقول:

«مش عارفة... مش عارفة».

كانت تعتصر هاتفها بين يديها في قلقٍ وحيرةٍ...

«إيه، هتكلمي مين؟».

19

زورق وردي

استمعت أمنية لهاجر دون أن تُقاطعها حتى انتهت، فطقطقت بلسانها قائلةً في جذلٍ:

«حكايتك دي عاملة زي الأفلام بالضبط».

تفرَّست في وجهها للحظاتٍ محاولةً تقييمها، ثم سألتها:

«بُصي، إحنا ما نعرفش بعض، وكلها يومين وهنفترق، قوليلي بأمانة، بجد مش إنت؟».

امتقع وجه هاجر وهمَّت بالكلام، فعاجلتها أمنية قائلةً:

«خلاص خلاص ما تزعليش، أصل لو مش إنت يبقى مين؟ وبعدين لو ما فيش حاجة بينكم، إيه اللي خلاه يتجرأ عليكي كده، معلش ما تزعليش مني، بس السؤال هو اللي بيطرح نفسه».

أشاحت هاجر بوجهها وقد امتعضت من تعليقات أمنية، بيد أن سؤالها الأخير شغل بال هاجر وألحَّ عليها.

ما الذي جرَّأ هاني تجاهها؟

أين كانت نقطة البداية لكل ما حدث؟

عادت بذاكرتها إلى الوراء بضعة أسابيع، وتذكَّرت كيف تقاذفتها بلا رحمةٍ أمواجُ الملل، وهدهدتها بالمقابل أحلامها الرومانسية.

تلك الأحلام التي شكَّلت لها زورق نجاة من واقعها، بلا كلفة ولا مجهود.

كانت كلما ضاقت ذرعًا بالحياة ومسئولياتها، استقلَّت زورقها الوردي وأبحرت في أحلام اليقظة خاصتها.

ربما بعد مشاهدة فيلم رومانسي أو حلقة من حلقات المسلسل التركي، تتخيل نفسها فيٍّ موضع البطلة لتسرحَ مع كلمات البطل الرقيقة، ونظراته الهائمة.

استمرَّت هاجر باللجوء إلى زورقها الصغير كل فينةٍ وأخرى.

حيلة مجانية سهلة، تُوفر لها تغييرًا سريعًا ومثاليًّا بعيدًا عن واقعها الباهت، وتمنحها بضع لحظات من المُتعة البريئة في دنيا وردية من نسجها.

كانت حريصة ألا يطأ زورقها سوى الشخصيات الخيالية من الروايات، والأفلام والمسلسلات، حتى تبقى آمنة، وقادرة على العودة في أية لحظة إلى مرفأ حياتها الآمن.

حتى وطأه هاني...

لم يكن هاني بطلًا خياليا، ولا ممثلا سينمائيا يبعد عنها آلاف الأميال، بل كان حقيقة ماثلة أمامها كل يوم.

وتقرُّبه منها، كان حقيقة أيضًا.

وهي، لم تحسب أن للحقيقة كلفتها...

وأن لخيارات الواقع... ثمنًا!

20

ذاكرة مُشوشة

حاولت هاجر في لحظات تيهها تلك الاتصال بنسرين كي تحكي لها ما ألمَّ بقلبها، وتطمئن بنصيحتها، لكنها لم تستطع الوصول إليها.

كانت تشعر بحيرةٍ وتخبطٍ، فهاني لا يتصرف تصرفاتٍ واضحةً أو خارجةً كي تردعه، فقط لفتات لطيفة يصعب رفضها، فماذا عساها أن تفعل؟

لجأت لتيتي جارتها، هي لم تكن صديقتها بالمعنى المألوف، إلا أنها كانت طيبة القلب، والوحيدة المتاحة للفضفضة خارج أسوار الوزارة، وقد ردَّت عليها قائلةً:

«هاني؟ المزّ أبو عيون زرقا اللي سألتك عليه ف صورتكم اللي ع الفيسبوك؟ يا لهوي... ده إنت محظوظة بصحيح».

«إنت بتهزري يا تيتي؟ بأقولك قلبي واجعني ومش عارفة أعمل إيه».

«قلبك يوجعك بتاع إيه؟ ده المفروض يبقى آخر انشكاح دلوقت... هييجي حد يطول».

«بطلي هزار وكلميني جد شوية، أوقفه إزاي عند حده؟».

«يعني إنت بجد عايزة توقفيه؟».

«طبعًا».

«يا بت بلاش استعباط، الست لو عايزة توقف الراجل هتعرف كويس قوي توقفه إزاي، غيرشي إنت بس اللي لادد عليكي الموضوع».

عبست هاجر وهي تُحاول إنكار تلك التلميحات لنفسها قبل أن تُنكرها لتيتي:

«إيه الكلام ده يا تيتي؟».

«خلاص خلاص ما تزعليش، أنا هاقولك، عايزة توقفيه عند حدّه، كشّميله!».

«يعني إيه؟».

كانت لتيتي دومًا تلك اللغة الغريبة والتعبيرات غير المألوفة لهاجر:

«يعني كشَّري ف وشه، اقطمي معاه، ما تديلوش ريق، وطبعًا إياكي الأوضة تفضى عليكم، لو زمايلك خرجوا، اخرجي وراهم على طول، مرة ف مرة هيفهم إنك مش عاجبك الحوار».

تنهدت هاجر وهي تُراجع ما قالته تيتي:

«تمام».

«قوم بعدها بقى أديله نمرتي».

قالتها تيتي بنبرةٍ جادةٍ، فنظرت إليها هاجر غير مُصدقة، لكي تبدد صدمتها ضحكة عالية من تيتي:

«إيه يا هجورة بأضحك معاكي».



هل كانت نصيحة تيتي السبب في المصيبة التي ألمَّت بها؟

لقد نفَّذتها بحذافيرها، فتعاملت مع هاني بجفاء، ولم تترك له أية فرصة للتودد...

في البداية بدا وكأنه مصدوم، وغير فاهم، لكنه لم يُعلق بشيء، ثم بدأ يتحاشاها هو الآخر، حتى اطمأنت أن كل شيء قد استقرَّ في مكانه الصحيح.

واليوم، يوم الجمعة ذاته، كانت قد أعدَّت لزوجها مفاجأة لم تُكتب لها أن تتحقق، إذ رتبت مع تيتي أن تُجالس البنتين بعد عودتهما من بيت حميها، بحيث تخرج هي مع إبراهيم في نزهةٍ على النيل، مثلما كانا يفعلان أيام الخطوبة.

فماذا حدث؟ مَن الذي نصب لها هذا الفخ؟

أهو هاني بعد أن شعر بها تصده؟

لقد ظنَّت أنه تفهَّم وضعها وقبله، فقد كفَّ عن محاولاته في الأيام المُنصرمة. هي لا تعرف ما دهاه يوم الحادثة، لماذا اقترب منها مجددًا وماذا كان ينتوي فعله؟

هي حتى لا تذكر على وجه الدقة أحداث تلك الليلة؟

ذاكرتها عما حدث مشوَّشة تمامًا، كشريط قديم تم العبث به فاختلطت صوره وتشوَّهت أصواته.

لقد همَّ بها قطعًا، ولكن هي؟

هي لم تهمَّ به.

أم فعلت؟

آه لو تستطيع تذكُّر حالتها القلبية وقتها!

هي تعلم أنها هربت منه، ومن نفسها الأمَّارة بالسوء.

نعم، لقد ولت هاربة، ولم تمسسه بسوء.

أم أنها فعلت؟

تبًّا لذاكرتها المشوشة!

21

بالشَّمع الأحمر

انهمكت منار في العمل صباح الأحد بمكتبها بالوزارة، عندما دلفت عفاف عليها الغرفة متَّشحة بالسواد، وبادرتها قائلةً:

«إيه يا منااار؟ مش لابسة أسود ليه؟».

نظرت إليها منار، وجهها الأبيض المُتناقض مع سواد لباسها، وابتسامتها العريضة المُتناقضة مع رمزية ثيابها، جعلاها تُؤثر الصمت، وتعود إلى شاشة حاسوبها.

أغلقت عفاف الباب خلفها واقتربت من منار تسألها:

«أخبار هاجر إيه؟».

همَّت منار بالرد عليها، إلا أن عينيها اللامعتين بالإثارة وابتسامتها الجذلة دفعتا منار لتنهرها قائلةً:

«فيه إيه يا عفاف، دي كانت زميلتك برضه».

تراجعت عفاف وهي تقول:

«هو أنا قلت إيه يا منار؟ ده أنا بأطمن عليها».

«كويسة، كويسة الحمدلله، وكلها يومين وتطلع».

«ليه، همه لقوا حد تاني يلبسوهاله؟».

ظهر الغضب في عينيْ منار وهمَّت بالقيام، فوضعت عفاف كفَّها على كتف منار مهدئةً:

«اصبري بس، ده أنا عندي أخبار عجب!».

ضايقها أسلوب عفاف الشامت وأرادت أن تصرفها إلا أن نظرات نسرين المتوسلة زارت مخيِّلتها، وهي تعلم في قرارة نفسها أن عفاف هي وكالة الأنباء المتنقلة للوزارة، وأنها تعرف ما لا يعرفه أحد، فاغتصبت ابتسامة وسألتها:

«خير؟».

«أستاذ مرسي... ما كلش من فواكه المحبة ولا حاجة».

«إيه؟».

«جوزي لقى خبر ع الفيسبوك بيقول إن حملة مباحث تموين كبست على المطعم ولقوا عنده لحوم منتهية الصلاحية وشمعوه بالشمع الأحمر».

دق قلب منار وهي تسألها:

«مش يمكن أي كلام ع الفيسبوك؟ مطعم بيضرب ف التاني بأخبار متفبركة وخلاص؟».

«ودي تفوت عليا برضه؟ كلمت الشغالة وقلتلها تعدي عليه وتتأكد بنفسها، أصلها ساكنة في السبتية، قريب منه».

«هاااا».

«زي ما بقولك، المطعم متشمع بالشمع الأحمر والعمال قاعدين قدامه بينشُّوا، ده أنا حتى خليتها تديني واحد منهم ع الموبايل وسألته، قال الكلام ده حصل من أسبوع بالضبط... يعني أستاذ مرسي كذاب... هي هي هي».

قالتها وهي تكتم ضحكتها بيدها.

لم تستطع منار مجاراتها في الضحك، فسألتها بجدية:

«وده معناه إيه؟».

«وأنا إيش عرفني يا ختي، إنت شفتيه النهاردة؟».

«مين؟».

«أستاذ مرسي... وشه أصفر وخاسس وحالته حالة».

ترددت منار وهي تقول:

«أكيد زعلان على هاني».

نظرت عفاف في عينيها وهي تكتم ضحكتها مجددًا:

«زعلان إيه... ده إحنا دافنينه سوا».

أيقظت عبارة عفاف قرون الاستشعار لدى منار. تعلَّقت عيناها بفم عفاف بانتظار ما ستُفصح عنه، بيد أن الأستاذ سيد دخل عليهما الغرفة في تلك اللحظة سائلًا:

«هو اللابتوب بتاع هاني- الله يرحمه- فين؟».

ردَّت عفاف:

«ما عرفش، هو كان معاه يوم الحادثة؟».

«لا، ما أظنش، طب حد فيكم معاها نمرة سمر أخت المرحوم؟».

«اشمعنى؟».

«عايز أشوف لو أشتري منهم اللابتوب، هيبقى لُقطة».

«طب ما لو كده آخده للواد ابني الكبير، بقاله شوية بيزن على لابتوب».

«ده لابتوب آبل، هيبقى غالي عليكم يا عفاف، سعره جديد بتاع ٤٠ ألف جنيه».

«يا لهوي!».

«أومال إنت فاكرة إيه، يعني قولي لو هيتباع مستعمل مش هيقل عن ١٥ـ ٢٠ ألف، أنا ممكن أشوفلك واحد مستعمل ف حدود ٣ـ ٤ آلاف، إيه رأيك؟».

«يا ريت والله يا أستاذ سيد».

«من عينيه، بس خلصيلي إنت الموضوع مع سمر».

«اتفقنا».

خرج سيد من الحجرة، فمالت منار على عفاف تسألها عن تلك الأشياء المدفونة، بيد أن عطية دخل قائلا:

«إنت هنا يا مدام عفاف؟ ده أستاذ مرسي قالب عليكي الدنيا».

خرجت عفاف مسرعةً تاركةً منار غارقةً في بحرٍ من الحيرة والفضول.

22

غوايش

تحرَّكت هاجر بصعوبةٍ بسبب القيد الحديدي الذي يربط يدها مع أخرى من نزيلات الحجز، وبسبب العساكر الذين أحاطوا بها من كل صوب وحدب.

كانوا يقتادون هاجر وزميلتها باتجاه سيارة الشرطة القابعة في ساحة القسم تمهيدًا لعرضهما على النيابة في مبنى المحكمة الذي يبعد عن القسم بضعة كيلومترات. تخبَّطت هاجر وهي تحاول الخروج من بين العساكر حتى دفعت بجسدها إلى الساحة.

الشمس...

الشمس والهواء اللذان حُرمت منهما لثلاثة أيام، مرت عليها كثلاث سنوات.

طرفت بجفونها غير مُصدقة أن أشعة شمس الشتاء الدافئة تُداعب عينيْها في رفقٍ. لم تأبه بالقيد الحديدي ولا العساكر، ووقفت تنظر إلى السماء في لهفةٍ، محاولة الاستحواذ على كل شعاع شمس ساقط عليها أو مار في الجوار.

لاحظ الأمين تلكؤها فدفعها نحو سيارة الشرطة في غلظةٍ.

استسلمت لدفعاته واعتلت بصعوبةٍ درجات السيارة العالية مع زميلتها في القيد الحديديِّ وهي تُكافح كي لا تقعَ أرضًا.

كانت السيارة من الداخل كحُجرةٍ كبيرةٍ مقسومةٍ إلى قسمين بواسطة قضبان حديدية، القسم الكبير منها مخصص للرجال، وممتلئ بمن لديهم عرض نيابة مثلها، أما القسم الصغير المُجاور للباب فكان يتسع بالكاد للعساكر وهي وزميلتها اللتين حُشرتا حشرًا في ركن (البوكس).

بدأ السواق يتحرَّك بالسيارة في بطءٍ خروجًا من أسوار القسم، وما لبث أن زاد من سرعته، ومن ثم رعونته بالقيادة حتى ظنَّت هاجر أنه يتعمَّد الارتطام بالحُفر والمطبات تكديرًا لرهائن النصف الخلفي من السيارة.

كانت تتمايل يمينًا ويسارًا عاجزةً عن حفظ توازنها أو الإمساك بحوائط السيارة بسبب القيد الحديدي.

كرهت التصاقها بالعساكر وتخبُّطها فيهم كل لحظة، وأجَّج غضبها شعورها بالضعف وقلة حيلة لتصبَّ لعناتها الصامتة على الجميع.

وقف السائقُ في إشارةٍ ما، فتناهت لمسامع هاجر موسيقى خافتة نابعة من كشك قريب. قدَّرت أن صاحبه قد ضبط موجة الراديو على إذاعة الأغاني. أصاخت السمع محاولةً تحديد الأغنية.

ميَّزتها، فأدركت أنها لم تكن أغنية، بل كانت رسالة سلام وطبطبة لها من السماء.

كانت موسيقى (غوايش) لعمر خيرت، تلك المقطوعة التي اعتادت هي عزفها على بيانو جدتها العتيق قبل أن تكتشفَ أن زوجة خالها قد تخلَّصت منه لبائع (روبابيكيا) مار، بعدما سكنت هي وخالها في منزل جدها وجدتها بعد وفاتهما.

تركت لخيالها العنان مع الموسيقى الساحرة، وبدأت تُحاول عزفها بأطراف أصابعها متوارية، أضحت الموسيقى أكثر وضوحًا وكأنما فطنت الأقدار لما تُخففه من أحزانها، فنقلتها لها بكفاءةٍ أعلى.

تذكَّرت حفلة عمر خيرت الأخيرة التي أقيمت في إحدى القرى السياحية مع نهاية الصيف، أرادت هي حضورها بشدةٍ، مما أثار حفيظة إبراهيم:

«حضرتيله ميت حفلة، ما بتزهقيش!».

«أنا حضرتله ٤ حفلات بس، وإنت عارف إني بحبه قوي».

«كلمة بحبه دي مستفزة، وإنت عارفة كده».

«الموسيقى بتاعته بتعجبني يا سيدي، كويس كده؟ أنا بجد مش مصدقة إنك إنت اللي كنت بتعزف معايا بيانو وإحنا صغيرين، إنت كنت بتحب عمر خيرت زيي وأكتر، إيه اللي حصل؟».

«كان زمان، أيام الروقان، إنما دلوقت الشغل والبنات والمسئوليات».

«ما هو علشان البنات والمسئوليات إحنا محتاجين نعمل الحاجة اللي بنحبها علشان تنسِّينا همومنا وتشحن طاقتنا».

«اشحني طاقتك بالسي دي بتاعته اللي في العربية ولا من ع الموبايل، ولا هو لازم نضرب مشوار للسخنة علشان تحضريله لايف؟».

«إنت عارف إني بأنبسط كده، وبأنسجم وأنا شايفة إيديه بتعزف».

«طيب طيب نبقى نشوف».

ولكنه لم «يشوف»، ولم يذهبا للسخنة، ولم تحضر الحفلة.

استفاقت من ذكرياتها على ارتطام الكلبشات إثر تحرُّك (البوكس) مجددًا، فتساءلت في سخريةٍ مريرةٍ إن كان هذا هو نصيبها من الغوايش!

انحسرت عنها الموسيقى وعادت للتخبط يمينًا ويسارًا، بينما اقتحمت روائح العادم أنفها، بيد أنها لم تبال، حاولت الحفاظ على أثر الموسيقى في روحها، وأن تستمتع بالنور والهواء قدر ما تستطيع.

وصلوا إلى المحكمة أخيرًا، بعد- ربما- ألف مطب وخمسمائة حفرة؛ فُتح باب السيارة فرأت طلعت ونسرين بانتظارها ومعهما رجل وقور أشيب الفوْدين، قدَّرت أنه المحامي، مسحت بعينيها الساحة بحثًا عن إبراهيم فوجدته على مقربةٍ يُدخن سيجارة.

متى عاد للتدخين؟ لا تعرف.

ترجَّلت من السيارة فأقبلت عليها نسرين يتبعها المحامي، بينما تباطأ عنهما طلعت مناولًا الأمين شيئًا ما.

كانت تشعر بهدوءٍ غريبٍ.

لم يُقبل عليها إبراهيم، بل حدجها بنظرةٍ ما، ثم أعطاها ظهره.

تكلمت نسرين:

«حبيبتي، عاملة إيه؟».

ردَّت بصوتٍ أجش غريبٍ عنها:

«هاكون عاملة إيه؟ الحمد لله على كل حال».

ثم سألتها بلهفةٍ:

«البنات؟».

«كويسين وزي الفل وعلى راس الكل من فوق، ما تقلقيش والله، غالبًا دي أحلى أيام حياتهم»..

لم تعرف هاجر أتسعد بسعادة ابنتيها أم تحزن لأن أتعس أيام حياتها هي أسعد أيامهما!

بادرها المحامي:

«إزيك يا هاجر يا بنتي، علشان تبقي فاهمة...»..

اتسعت عينا هاجر في أملٍ وهي تُتابع ما يقول:

«لسه ما فيش جديد، العرض النهاردة على النيابة عرض صُوري، روتيني يعني، بغرض التجديد للحجز».

أظلمت عينا هاجر، وتصاعد في رأسها صوتُ الواقع هازئًا: أكنت تظنين أن كل شيء سينتهي اليوم؟ يا لك من بلهاء!

«بس إحنا شغالين، وكلها كام يوم وتخرجي بالسلامة».

سألته نسرين بلهفةٍ:

«حضرتك مش عايز تسأل هاجر على أي حاجة، يمكن تساعدك؟».

ردَّ المحامي برتابةٍ:

«زي ما قلتلكم، المهم الأدلة وشهادة الشهود».

تحسَّست هاجر لا إراديا آثار البثرة الذابلة على وجهها.

أشار إليهم الأمين في صرامةٍ، ثم اصطحب هاجر وزميلتها إلى الداخل.

أدخلهما إلى حجرةٍ واسعةٍ ذات نوافذ مفتوحة، لا شيء بها سوى دكَّتين من الأسمنت.

تأمَّلت هاجر الغرفة الفسيحة الشاغرة، والنوافذ الكبيرة والضوء الحر المُنساب منها، وهتفت لا إراديا:

«مش عايزة أرجع الحجز!»

فحدجتها زميلتها في القيد بنظرةٍ ساخرةٍ.

تلفتت هاجر حولها في حيرةٍ، كانت تُريد أن تصلِّي الظهر، سألت الأمين عن القِبلة، أشار إليها بالاتجاه، فاستأذنت زميلتها في القيد وحاولت ضبط نفسها على الاتجاه فتأففت زميلتها.

نظر إليهما الأمين متفكِّرا للحظة، ثم قرَّر أن يفكَّ عنهما القيد.

انتهت من الصلاة فجلست على الدكة الصُّلبة في مقابل زميلتها تتأملها هي الأخرى.

امرأة سفعاء الخدين، ذات وجهٍ شبيهٍ بالمومياء، تلك التي ضُبطت بكميةٍ كبيرةٍ من الهيروين بحوزتها. كان وجهها خاليًا من أي تعبير، وعيناها باردتان لا تشبهان عيون البشر في شيء، بل بدت أقرب لفجوات في وجه تمثالٍ مجهولٍ، لم يبد عليها أنها تأبه بوضعها أو مصيرها الذي سيتحدد بالعرض على النيابة.

تساءلت هاجر ما الذي يجعل امرأة تسلك مثل هذا الطريق؟

ثم شعرت بوخزةٍ في قلبها وهي تتساءل، هل سيأتي عليها اليوم الذي تجلس فيه- هي- مستسلمةً بوجهٍ خالٍ من التعبيرات، بينما تتساءل أخرى عن السبب الذي أودى بها- هي- إلى ذلك المصير؟

23

المدفون

اختبأ زياد ذو السنوات السبع من أخته في دولاب الملابس، وأخذ يسلِّي نفسه بالعبث في محتويات قعره عندما عثر على هاتفٍ حديثٍ.

قلَّبه بين يديه، وتحسَّس بإصبعه الصغير علامة التفاحة المقضومة على ظهره متعجبًا، ثم خرج من الدولاب غير عابئ بدور (الاستغماية) الذي فسد بظهوره، ولا بأخته التي أمسكته من تلابيبه في انتصارٍ؛ تملَّص منها وجرى نحو والدته ورفع إليها الهاتف سائلًا في فضولٍ:

«موبايل مين ده يا ماما؟».

«إيه ده؟ لقيته فين؟».

«في شنطة اللابتوب القديمة بتاعة بابا اللي في الدولاب».

قلَّبت والدته الهاتف بين يديها في استغرابٍ، ثم قالت:

«لما ييجي بابا من الشغل نسأله».

ثم دسَّته في جيب جلبابها المنزلي وهي تتمتم في سرها بغيظٍ:
«إنت رجعت تاني؟ وقعتك سودا ومهببة».

✦

أنهت نسرين يومها الطويل في المستشفى ثم العيادة، وما إن دلفت إلى السيارة حتى فتحت هاتفها تتابع الإشعارات. وجدت رسالة نصية من منار تُخبرها فيها بما عرفته عن مرسي. أدارت سيارتها بيدٍ، وبالأخرى هاتفت منار قائلةً:

«منار، معلومة مرسي دي في منتهى الخطورة، أنا كنت خلاص مقتنعة إن عاطف هو اللي عملها، وطلبت من المحامي يتصرَّف علشان نثبتها عليه، دلوقت إنت بتقولي مرسي...».

«أنا مش بأقول أستاذ مرسي، أنا نقلتلك اللي قالته عفاف».

«ما هو ليه هيكدب كدبة غريبة زي دي لو ما كانش مخبي حاجة؟».

«معاكي حق، بالذات إن شكله غريب، خاسس وممقوت كأنه ما بياكلش».

«أكيد من تأنيب الضمير، القتل مش حاجة سهلة».

«بس هيقتله ليه؟ دول كانوا سمن على عسل؟».

«ده سؤال مهم، الدافع يا منار، من غير دافع اتهام مرسي ما لوش أي معنى».

«يمكن بسبب المدفون اللي عفاف قالت عليه؟».

«مدفون إيه؟».

«عفاف قالتلي إن فيه حاجات مدفونة بينهم، بس دخل علينا أستاذ سيد فما كملتش كلامها، وطول اليوم بأحاول أستفرد بيها ما عرفتش».

«تفتكري حاجة ليها علاقة بالخاتم؟».

«خاتم إيه؟».

«بتاع عفاف اللي قلتي إنه اتسرق وهاني رجعه».

«لا طبعًا، إيه علاقة أستاذ مرسي بالخاتم؟!».

«وهي إيه علاقة أي حاجة بأي حاجة؟».

«بكرة إن شاء الله هاعرفلك من عفاف إيه المدفون اللي تقصده».

«طب ما تكلميها دلوقت تسأليها!».

«لا، جوزها غلس قوي، بكرة في المكتب أحسن، المهم إنت طمنيني، ما فيش جديد عن هاجر؟ عملت إيه في عرض النيابة؟».



خرجت هاجر من غرفة النيابة منكَّسة الرأس، لم تكن تظن أن العرض سيكون صوريًّا إلى هذه الدرجة، نظرت إليها سفعاء الخدين في سخريةٍ ولسان حالها يقول:

«أومال إنت كنتي فاكرة إيه!».

مدَّت هاجر يدها في استسلام للأمين كي يضعَ فيها القيد من جديدٍ، وعادت تخوضُ أحداث الَيوم كلها، ولكن بالمقلوب.

وكما كان الأمل يتصاعد بداخلها في الصباح مع كل خطوةٍ تجاه النيابة، أخذ ينحسرُ عنها حتى وقفت أمام باب غرفة الحجز الحديدي.

كانت تتمنى لو أنه حُكم عليها بأي حُكم، أي حُكم، فقط كي تنتقلَ إلى مساحةٍ أوسع وأقل اكتظاظًا.

دمعت عيناها وهي تُدرك أن خيارها الوحيد المُتاح للخروج من هنا، هو الترحيل إلى السجن! بعدما توارى خيارُ الحرية وراء عينيْ المحامي الجامدتين، وعرض النيابة الروتيني، وابتسامة نسرين اليائسة.

24

العلامة المُعلقة

كان الوقت لا يزال مبكرًا، عندما دلفت سيدة ثلاثينية إلى حرم القسم وطلبت مقابلة ضابط المباحث المسئول عن قضية قتل «هاني طه عبد الحليم».

تأمَّل الأمين الكدمة البنفسجية الظاهرة حول عينها اليمنى، والتي كان لونُها القاتمُ متناسقًا بشكلٍ مضحكٍ مع لون شالها الأزرق المُطرز بخيوطٍ فضيةٍ على شكل ورود، بينما تناقضت أناقته مع بساطة عباءتها السوداء وحذائها المُتهالك. طلب منها الأمين بطاقة الرقم القومي، وأمرها بالانتظار.

تفحَّص الضابط البطاقة، ثم قال:

«سمر طه عبد الحليم، دي أخت المجني عليه، دخلها!».

وقفت سمر أمام الضابط مطأطئة الرأس:

«خير يا سمر؟».

«عايزة أعترف على اللي قتل أخويه».

«مين يا سمر؟».

«فتحي جوزي».

«إيه؟».

✵

«أيوه يا نسرين زي ما بقولك كده، اعترفت على جوزها، مش عايزين نسبق الأحداث، أنا بأتابع التحقيقات وهاطمنكم أول بأول».

ارتجفت أصابع نسرين وهي تُنهي المكالمة وترمي بجسدها على المقعد الوثير بغرفة المعيشة، بينما شفتاها تلهجان بالحمد والشكر.

رنَّ هاتفها، كانت منار تطمئن، فبشَّرتها نسرين قائلةً:

«شفتي يا منار، فتحي جوز سمر هو اللي قتل هاني، سمر اعترفت عليه، أنا مش مصدقة نفسي، المحامي قال إنها مسألة إجراءات، وكلها كام ساعة وهاجر تبقى وسطينا».

«ياما إنت كريم يا رب، الحمد لله... بس إزاي فتحي ده راح عن بالنا؟ أنا سبحان الله قلبي انقبض أول ما شفت وشه في العزا، شكله ما كانش مريح خالص، إزاي ما فكرتش فيه».

«مش مهم، المهم إن مراته اعترفت عليه الحمد لله».

«كان دايمًا فيه خلافات بينه وبين هاني، بالذات لما بدأ يضرب سمر، هاني ما كانش طايقه، وياما حاول مع سمر يطلقها منه، بس هي كانت بتحبه، آخر مرة ضربها كسر لها إيدها، وهاني عمل له محضر في القسم، قوم سمر بدل ما تشكره اتخانقت معاه وقالت إنه عايز يخرب عليها».

«أيوه، ما ده اللي قالته في المحضر، وقالت إن بعد الموقف ده هاني غضب عليها وحلف ليطلَّعهم من الشقة وياخد فيها خلو، وقالها ابقي خلي فتحي يجيبلك شقة، بس معقولة كان هيعمل كده في أخته؟».

«الله أعلم، يمكن كان بيهددها وفتحي خد الموضوع جد، هاني كان بيقول إن البلاوي اللي فتحي بيتعاطاها خلته مش دريان بيقول إيه ولا بيعمل إيه، ده مرة ضرب صبي القهوة بإزازة على راسه وكان هيموته علشان خمسة جنيه فرق في الحساب».

«والله صعبانة عليا سمر، حاجة بشعة إن جوزها يقتل أخوها، يا حبيبتي، كده فقدت رجالتها كلهم في يوم وليلة».

«ربنا يصبرها ويعوَّضها في يوسف ابنها».

أنهت نسرين المكالمة وابتسمت لطلعت الذي كان يتأمل فرحتها البادية كارهًا أن يُبددها.

«ما لك يا طلعت؟».

«مش عايز أضايقك بكلامي».

«أنا مبسوطة، وما فيش حاجة هتقدر تضايقني، قول اللي إنت عايزه!».

ابتسم طلعت لنزقها، وسألها في هدوءٍ:

«ما فكرتيش فتحي قتل هاني فين وإزاي؟ معقولة راح له الشغل الساعة ١٢ بالليل علشان يقتله؟ طب عرف إزاي إنه في الجراج؟ إزاي ما حدش خالص شافه لا داخل ولا خارج؟ وكمان ما كنش له بصمات على القضيب».

انكمشت ابتسامة نسرين المتفائلة إثر أسئلة طلعت، كيف ضلَّلتها فرحتها فلم تسأل نفسها تلك الأسئلة البديهية؟

ولكن، ما الذي يجعل سمر تعترف على زوجها إن لم يكن هو القاتل؟ بل حتى لو كان هو القاتل، كيف اعترفت عليه رغم حبها العنيف له؟ خاصة بعد أن فقدت أخاها ولم يعد لديها أحد في الدنيا سوى زوجها.

انضمت أسئلتها الحائرة لتساؤلات طلعت في علامة استفهام كبيرة احتلت سماء الغرفة وظلت مُعلقة فيها...

إلى حين!

25

وفي كل قسم فرج

لم تعلم هاجر شيئًا عن الأخبار المُفرحة وما تلتها من أسئلةٍ مشروعةٍ وعلامات استفهام معلَّقة. كانت غارقة في أفكارها الخاصة، وفي السؤال الوجودي الذي طرحته أمنية من بعد نسرين:

«أومال مين؟».

«ما عرفش، هاني علاقته كانت كويسة مع الكل وطول عمره جدع».

«وأنا بأقولك ما فيش الكلام ده، إحنا مش ملايكة، كل واحد له تكاته ودقات نقصه، ركزي إنت بس شوية».

«والله ما فيش حاجة خالص ف بالي».

«عارفة المثل الفرنسي اللي بيقول: شيرشيه لا فام؟».

«قصدك إيه؟».

«ابحثي عن المرأة، اللي يشاغل واحدة متجوزة، مش هتكون الأولى ولا الأخيرة، أكيد كان له علاقات تانية، بس إنت اللي مش واخدة بالك».

همَّت هاجر بتحريك رأسها نافيةً، إلا أنها توقفت، وشردت...

تذكَّرت ياسمين، تلك الفتاة الرقيقة التي انضمَّت لهم كمتدربةٍ لعدة أشهر. كان هاني يُعاملها معاملةً لطيفةً ويشرح لها ما استغلق عليها من أمور العمل، حتى أسرَّت لها ياسمين في سعادةٍ أنها لاحظت اهتمام هاني بها، وسألتها عما يُحبه كي تشتريه له كهدية عيد ميلاده.

استغربت هاجر حينها، فهي تعرف أن ياسمين ليست طراز هاني من الفتيات.. سألته عن سر اهتمامه بها، فأجاب:

«أنا بأحب أرمي الطُّعم وأشوف إيه اللي هيطلع».

صدمتها إجابته، واستاءت من أجل ياسمين، ولكن قليلا، فهي قد ظنَّت في قرارة نفسها أن خيال ياسمين الخصب هو المسئول عن ترجمة اهتمام هاني البريء اهتمامًا مبالغًا فيه.

ولكن الآن عندما تفكر، ألم تكن عبارته واضحة؟

الطُّعم!

كيف مرَّت عليها هذه الكلمة مرور الكرام؟

لاحظت أمنية شرودها..

«شكلك افتكرتي حاجة»

حكت لأمنية واقعة ياسمين، فعقَّبت:

«شفتي، بدأت تندَّع أهي، بس غالبًا مش ياسمين اللي قتلته، طالما بتقولي إنها سابت الشغل من كذا شهر واتخطبت، يلا ركزي أكتر، مين معاكي ستات تاني في الشغل؟».

«ما فيش حد مش متجوز».

تراقصت ابتسامة جانبية على شفتي أمنية وهي تحدج هاجر بنظرةٍ ذات مغزى جعلتها تشيح بوجهها وهي تقول:

«فيه منار وعفاف وعلا... دول اللي في المجموعة بتاعتنا».

«ناخدهم بالترتيب.. منار؟».

«لا، مستحيل، منار ما كانتش بترتاح له خالص، وكمان جوزها بيغير قوي، فهي مخلية علاقتها بالزملا كلهم في أضيق الحدود».

«ماشي، عفاف؟».

«عفاف أكبر منه بيجي بعشر سنين، ومش الستايل بتاعه خالص».

«علا؟».

علا!

تذكَّرت نظرتها لها يوم أن أعطاها هاني الوردة.

تلك النظرة التي احتارت في تفسيرها، وتعلم الآن أنها كانت نظرة عدائية. تذكَّرت ضحكة علا العصبية عندما أخبرتها أن هاني يبدو مهتمًّا بياسمين، تذكرت أيضًا إصرارها على شراء ملابس جديدة ليلة رحلة الوزارة إلى الفيوم، والمظهر المتألِّق الذي ظهرت به في الرحلة، ومرحها الزائد يومها، كما تذكَّرت شطائر (البرجر) البيتي، التي كانت تتفنن علا في إعدادها، لحبه فيها، وعدم قدرته على أكلها من المطاعم المتخصصة بسبب تحسسه من فول الصويا.

«طالما سكتِّي وتنَّحتي، تبقى علا».

«مش عارفة».

«هي متجوزة صح؟ علاقتها بجوزها؟».

«كتير بتشتكي منه، لكن لما كنت بأشوفهم مع بعض كنت بأحس إنهم تمام وما فيش حاجة، كان بقالها فترة بتقول إنهم خلاص هيتطلقوا، وإنها قابلت واحد زميلها من أيام الجامعة، وإنه وعدها بالجواز أول ما تطلق، بس ما فيش حاجة من دي حصلت».

«علا كانت سهرانة معاكم يوم الحادثة؟».

«لا، بس....».

سباب مفاجئ قطع عبارة هاجر، كانت مستغرقة هي وأمنية في حوارهما فلم تلاحظا بوادر اشتعال الموقف، ولكنهما استفاقتا على شتائم مقززة تنهال من فم إحداهن، بينما قامت أخرى بالصراخ، وثالثة بالردح والضرب على صدرها.

اندلعت طرقاتٌ شديدةٌ على باب الحجز، وصرخ الأمين فيهن: «اخرسوا بدل ما نجيلكم!».

تدخلت بعض النزيلات لتهدئة الموقف، إلا أن تلك التهدئة كانت كمن يسكب على النار بنزينًا، فبدأ العراك بالأيدي.

وهنا، فُتح باب الحجز بصوته الهادر ودخل منه...

فرج!



دخل عليهن رجلٌ ضخمٌ، بحجم الباب، أو أكبر، تكاد عضلاته تمزِّق ملابسه من فرط ضخامتها، ذو شعر ثائر، وشارب كثٍّ يتصل بشعر فوْديه الأشعث، بينما ظهرت غابةٌ كثيفةٌ من الشعر من أزرار قميصه المفتوحة.

كان (فرجا) نموذجيا كما يقول الكتاب.

تحرَّك نحوهنَّ في غضبٍ هادرٍ فانكمشت النزيلات في رعبٍ بعد لحظاتٍ من عراكهن الوحشي.

ومع كل خطوةٍ للغوريلا البشريِّ داخل الحجرة، كانت النزيلات ينكمشن أكثر، حتى تكاثفن في ربع الغرفة.

«بره... اطلعوا كلكوا برررررره... والله لنغرَّق لكم الزنزانة علشان تتعلموا الأدب، والله لايجيلكم روماتيزم النهاردة... يلا بررررررررره».

خرجت النزيلات ناكسات الرؤوس في صمتٍ، بينما انكمشت هاجر في أمنية. وقفن جميعًا في الطرقة الضيِّقة، بينما توغَّل فرج وعدة أمناء إلى داخل الغرفة. ووقف أمين آخر يوبخهن ويكيل لهن الوعيد والتهديد وهن يومئن برؤوسهن في هلعٍ ووجلٍ.

بعد لحظاتٍ طويلةٍ، أشاروا إليهن بالدخولً إلى غرفة الحجز.

اقتربت هاجر وقلبها يرتعش من الخوف، كيف ستنام على أرضٍ مبتلةٍ في هذه البرودة القارصة، وإلى متى؟

لن يجف الماء في تلك الغرفة الرطبة التي لا تدخلها شمس ولا هواء إلا بعد أسبوع على الأقل.

نظرت بداخل الغرفة فطالعتها سماؤها الفارغة من الحبال التي كانت متقاطعةً عبرها، كما خلت الحوائط من المُعلقات كلها.

تناثرت الأغراض والأكياس على الأرض في فعلةٍ انتقاميةٍ واضحةٍ.

ولكن ـ لدهشتها ـ كانت أرض الغرفة جافة، لا أثر للمياه بها.

«إحنا ما غرقناش الأوضة علشان خاطر الستات المحترمة دول»، قالها الأمين وهو يشير نحو هاجر وأمنية والسيدة الخمسينية صاحبة الساعة.



«بس وكتاب الله،لو سمعنا لكم صوت لتندموا ع اليوم اللي اتولدتم فيه يا ولاد الـ&^#».

تنفَّست هاجر الصعداء وحمدت الله من أعماقها على جفاف الأرض كما لم تحمده من قبل. انكمشت على نفسها في بلاطتها تُحاول إيقاف الرعشة التي اكتنفتها من الموقف بأسره، بينما بدأت النزيلات في فرز الأغراض وإعادة تعليقها.

همَّت إحداهن بمعاتبة أخريات في صوتٍ خافتٍ، فهجمت أخريات عليها ينهرنها فسكتت على مضضٍ.

مالت أمنية على هاجر هامسةً:

«لما تجيلك نسرين الزيارة الجاية ما تنسيش تقوليلها تِنَخرَب ورا علا، مين عارف، يمكن تطلع هي فعلا...».

«تفتكري؟».

26

كيد النِّسا

«يعني إيه بلاغ كيدي؟»؛ صرخت نسرين في يأسٍ..

هدَّأها طلعت قائلًا:

«ما إحنا كنا متوقعين يا نسرين من إمبارح إن الكلام مش منطقي».

«يعني إيه برضه بلاغ كيدي؟ مش فاهمة!».

«يعني سمر اكتشفت إن فتحي بيعرف عليها واحدة، فاتخانقت معاه، فضربها جامد، فحلفت لتنتقم منه وراحت بلغت عنه في القسم».

«حتى لو كده، إيه اللي يمنع إنه يكون هو اللي قتل هاني برضه؟».

«شهادة الشهود، في الوقت اللي هاني اتقتل فيه كان فتحي بيتخانق على القهوة، ده حتى متصوَّر فيديو».

«مش يمكن فيديوهات متفبركة بتاريخ قديم؟».

«نسرين، حبيبتي، استسلمي... مش فتحي اللي قتل هاني، بس دي مش النهاية... التحقيق لسه شغال، والمحامي مش ساكت».

اغرورقت عينا نسرين بالدموع بعد أن كانت قد تشبثت بالأمل.

اتصلت بمنار كي تبلغها المستجدات وتطالبها بمزيدٍ من المعلومات، إلا أن هاتفها كان غير مُتاح كالعادة.

✵

أثار غياب أستاذ مرسي عن العمل مجددًا همز الزملاء ولمزهم، خاصة حينما اجتمعوا في وقت الراحة.

قالت منار:

«أنا قلقانة قوي على الأستاذ مرسي، يا ترى إيه الموضوع؟!».

غمزتها عفاف قائلةً:

«قلقانة برضه، ده أكيد الود ودك يطلع هو اللي عملها علشان صاحبتك تخرج».

لم تكن منار قد أخبرتهم بعد باعتراف سمر على فتحي، آثرت الانتظار حتى تخرج هاجر بالفعل حتى لا تثير الأقاويل أو تعرقل مسار التحقيق كما نصحها زوجها، فردَّت قائلةً:

«هي صاحبتي أنا بس؟ المفروض إنها زميلتنا كلنا، وكلنا خايفين عليها».

علَّقت علا قائلةً:

«وأستاذ مرسي زميلنا ومديرنا برضه، أكيد مش عايزينه هو اللي يلبسها».

استغربت منار عبارة علا وهي التي لم تكن تطيق مرسي، فقالت في خشونةٍ:

«إحنا مش عايزين حد يلبس حاجة، عايزين اللي قتل ياخد جزاته».

ارتجفت علا مع كلمة القتل، وقالت:

«طبعًا طبعًا».

«وهو أستاذ مرسي هيعمل كده ليه في هاني؟»، تساءل عاطف.

فردَّ سيد بابتسامةٍ جانبيةٍ:

«يمكن علشان هاني ما يفضحوش».

نظرت إليه عفاف محذِّرةً، فرفع كتفيه في لا مبالاة ولم يعقِّب.

أثارت عبارته منار وتساءلت في داخلها، ألم يئن للمدفون أن يظهر؟

بدا وكأن عاطف هو الآخر ليس لديه علم إذ سأل في فضولٍ:

«يفضح إيه؟ هو هاني يعرف إيه عن مرسي إحنا ما نعرفوش!».

اغتاظت علا بدورها فقالت:

«واضح إن فيه حاجة مريبة، عفاف وسيد بس اللي يعرفوها».

هتفت منار:

«الخاتم؟»

ضاقت عينا عفاف وهي تسأل:

«قصدك إيه؟ إن أستاذ مرسي هو اللي سرق الخاتم؟».

«أيوه، مش هاني قالك إنه عارف مين اللي سرقه، وجابهولك منه؟».

انتبهت عفاف وبدت الفكرة وكأنها جديدة تمامًا عليها، فقالت بنبرةٍ تحمل من التفكير أكثر بكثيرٍ من النفي:

«أستاذ مرسي ما يعملش كده».

ثم عقَّبت مغتاظةً:

«آه لو نعرف موبايل هاني راح فين؟ أكيد كان حاطط عليه نسخة من الفيديو اللي نزِّله من الكاميرات، أنا عارفة دماغه».

هتف سيِّد وكأنه تذكر:

«عفاف، عملتيلي إيه في موضوع اللابتوب؟».

«كلِّمت سمر، قالت إن الواد يوسف ابنها شيطان فيه، بس لما عرفت إنه ممكن يتباع بالرقم اللي إنت قلته، قالتلي سيبيني أسبوع كده أسلكه من الواد».

«يا ابن الإيه يا سيد، إنت ما فيش حاجة تعدي عليك!».

علَّق عاطف، ثم سأل عفاف في لهفةٍ:

«طب وشقته بتاعة زايد؟ ما عندكيش فكرة هيعملوا فيها إيه؟».

«فيه إيه يا جماعة، ده الراجل لسه ما ارتاحش في تربته».

علَّقت علا في ضيقٍ، فقهقه سيد معقِّبًا:

«الحي أبقى من الميت».

بينما ألح عاطف قائلا:

«اسألي سمر يا عفاف الله يكرمك، أصل احتمال هي وجوزها ما يحبوش يسيبوا حتتهم، ساعتها أكيد هيبيعوا شقة زايد، والواد هاني ابن الإيه كان شاريها بتراب الفلوس. أنا عارف إن شقق الشباب بيبقى عليها حظر بيع، بس إحنا ممكن نستِّف الورق عند أي محامي طالما يعني معرفة وزملا، أنا أولى من الغريب، وإنت عارفة مراتي وأهلها قارفني بموضوع الشقة ده إزاي».

راقبت منار زملاءها الأعزاء وهم يوزِّعون تركة زميلهم المغدور، غير مصدقةٍ كيف يخفون وراء أقنعتهم الودود كل هذه المطامع البشرية الفجَّة.

27

النقاط الشاردة

فور خروجها من الوزارة، تلقَّت منار تنبيهات هاتفها بمحاولة نسرين الاتصال بها، ارتجف قلبها وهي تأمل في الأخبار السارة، تفقدت الواتساب، ولما لم تجد شيئًا شعرت بخيبة أمل. اتصلت بنسرين، وتلقَّت خبر البلاغ الكيدي قائلة:

«لا حول ولا قوة إلا بالله، تصدقي جوزي قالي حاجة زي كده بس أنا ما صدقتوش! طب وبعدين؟».

«البركة فيكي يا منار، إيه الأخبار عندك؟».

«واضح إن كان فيه سر مريب بين هاني والأستاذ مرسي، عفاف وسيد عارفين، أنا شكيت يكون هو اللي سرق الخاتم، بس من رد فعل عفاف على كلامي حسيت إن مش ده السر».

«أومال إيه؟»

«عفاف بتخاف قوي من أستاذ مرسي وممكن تجيب في سيرة الكل إلا هو، بس أنا هافضل وراها لحد ما أعرف... المهم إنه هو وعاطف حجج غيابهم طلعت مضروبة، ضروري المحامي يدور وراهم».

«هاكلمه بعد ما أقفل معاكي على طول... ما فيش حاجة تانية لفتت انتباهك؟».

صمتت منار هنيهة، فكرَّرت نسرين:

«أي حاجة يا منار؟ موقف مش منطقي، كلمة اتقالت مش في مكانها...».

تذكرت منار عبارة علا..

«علا زميلتنا كانت بتدافع عن أستاذ مرسي النهاردة، مع إنها طول عمرها مش بتطيقه».

«معنى كلامك إنها مش عايزة هاجر تخرج؟».

«مش عارفة».

«هي علاقتها بهاجر وهاني كانت عاملة إزاي؟».

بدأت منار بسرد وقائع مختلفة لهم معًا، لكن تلك الوقائع لم تنسجم في عقل نسرين، هناك نقاط فوق الخط البياني ونقاط تحته؛ احتارت في تفسير شرود تلك النقاط عن النمط السائد!

كلام منار يوحي بعلاقةٍ جيدةٍ بين علا وهاجر، ولكن في مواقف بعينها كانت ردود أفعال علا حادةً وغير متسقة، فما الرابط الذي يجمع تلك المواقف؟

أعاد عقل نسرين المشاهد التي ذكرتها منار بالتصوير البطيء، مرة تلو المرة، حتى استطاعت بمبضعها الدقيق فصل واستخراج العامل المشترك في تلك المواقف الشاذة عن النمط.

إنه هاني...

هاني هو العنصر الذي دارت من حوله ردود أفعال علا غير المنطقية...

ترى ما هي حجة غياب علا؟



رفعت سامية الهاتف أمام زوجها وسألته:

«موبايل مين ده؟»

امتقع وجهه وهو يسألها بدوره:

«إنت لقيتيه فين؟».

«الواد زياد لقاه ف قعر الدولاب».

ازدرد ريقه وهو يقول في سرعةٍ:

«ده بتاع واحد صاحبي إداهوني علشان أصلحه».

«عليّا أنا الألاعيب دي؟ ده أنا خبزاك وعجناك. وبعدين مال وشك اتخطف كده ليه؟ والنبي شكلك رجعت تلعب بديلك».

«إيه الكلام الفارغ ده! هاتي الموبايل!».

«والنبي أبدًا، كلِّم صاحبك قدامي الأول»، قالتها بلهجةٍ ناعمةٍ، وكأنها في سجالٍ ممتع..

«إنت مجنونة يا ولِّيَّة؟ أكلمه على إيه؟ أما موبايله ف إيدك».

«مش هتاخد الموبايل غير لما صاحبه يقولي بلسانه».

«هاتي الموبايل يا ولية يا خرفانة إنت!».

«والنعمة أبدا ما يكون، أما نشوف حكايتك إيه المرة دي».

ازدرد ريقه ثانية وهو يقول في استسلامٍ:

«طيب حاضر، هاخليه يكلمك بكرة من تليفون الشغل».

«ماشي... ولو طلعت كداب، وكتاب الله المرة دي لأفضحك قدام أهلك كلهم».

«كداب إيه بس يا مخبولة، ده أنا حالف ع المصحف».

«قالوا للحرامي احلف هي هي»، قالتها بلهجةٍ ساخرةٍ وهي تدس الهاتف المحمول في فتحة ملابسها العليا.

رفع إصبعه محذرًا:

«إوعي تفتحيه، لحسن هو وقع في ميه، لو فتحتيه هيبوظ خالص!».

ربتت على صدرها حيث دست الهاتف، وقالت:

«ما تقلقش، في الحفظ والصون».

ثم أولته ظهرها وابتعدت ضاحكةً في تلذذ، تهتز كل كتلة فيها على حدة...

✠

أنهت نسرين مكالمتها الأخيرة مع المحامي في اقتضابٍ.

كانت تعلِّق أملًا كبيرًا على انهيار حجج غياب عاطف ومرسي، ولم يكن لديها أي تصور لسبب كذبهما واختلاقهما حججًا غير حقيقيةٍ إذا كانت لديهما حججٌ حقيقية تدفع عنهما الشكوك.

كانت متأكدة إن كذبهما دليل دامغ على تورطهما بشكلٍ أو بآخر في الجريمة.

كيف كان لها أن تتخيل أن سبب كذب مرسي، وسبب شحوبه وهزاله في آنٍ واحدٍ، هو أنه قد أجرى عملية تخسيس!

وأنه أراد إخفاء الأمر عن زملاء الوزارة تجنبًا للهمز واللمز، فاختلق مسألة الأكل الفاسد والنزلة المعوية كسبب يُفسر به غيابه، ويتناسب كذلك مع هزاله وضعفه المتوقع بعد العملية.

أكَّد لها المحامي أن مرسي قد قدَّم للنيابة أوراقًا مختومة من المستشفى تُثبت كلامه، وعليه، فلا يُمكن أن يكون متورطًا في الجريمة بأي شكل.

فكَّرت هي أنها لو أجرت عملية تخسيس لأعلنتها على رؤوس الأشهاد، دونما أن تضع وزنًا لكلام هذا أو ذاك، ولكن يبدو أن المحامي كان على حق عندما قال لها:

«الناس مش زي بعضها!».

ويبدو أن اختلاف البشر ذاك وحملهم وزنًا لكلام الناس، هو السبب المنطقي الوحيد لكذب عاطف كذلك.

إذ إن عاطف كان يخشى لسان والدته الحاد وغلظتها إذا ما علمت أنه كذب عليها بشأن ذهابه إلى طبيب ابنته مع زوجته، وأنه في الحقيقة كان يلعب الطاولة على القهوة مع أصدقائه، بدلًا من أن يزورها ويُلبي متطلباتها.

لم يجرؤ أن يُواجهها وفضَّل على ذلك أن يكذب، وأن يتذلل لزوجته كي تغطي كذبته، ولكن عندما واجهته النيابة اعترف لهم بالحقيقة البسيطة التي دعَّمتها شهادات الموجودين على القهوة حينها.

تذكرت أنها في غمرة إحباطها قد نسيت أن تسأل المحامي عن حجة غياب علا.

أيقظ هذا الخاطر فيها الأمل فقرَّرت أن تتبعه حتى النهاية، وأن تدفع كلًّا من منار والمحامي لتتبعه بدوريهما.

ويبدو أن حدسها كان على حق!

28

بذرة الفضول

تحمَّست منار لتتبع حُجة غياب علا، ودفعتها حماستها تلك إلى الاتصال بعفاف ضاربة بغلاسة زوجها المتوقعة عرض الحائط، ولكن لحُسن الحظ كان زوجها نائمًا، فقامت ببعض (الرغي) الفارغ كمقدمة، ثم قالت لها بحذرٍ:

«مش غريبة إن علا النهاردة كانت بتدافع عن أستاذ مرسي!».

«آه والله معاكي حق، تصدقي ما ركزتش».

«أيوه يا ستي ما إنت كنت بتداري على المدفون».

«مدفون إيه بس يا منار هتجيبلنا الكلام».

«طب سيبك من المدفون، تعرفي علا كانت فين ليلة الحادثة؟».

«كانت في البيت مع الولاد».

«إممم، طيب».

«إيه؟ شاكة ف حاجة؟».

«لا طبعًا، مش ممكن أشك في زميلتنا، أنا قلت يجوز عندك معلومات زيادة، ده جوزي عمَّال يقولي عفاف زميلتكم دي ولا أجدعها مخبر، هي اللي قفشت كدب عاطف وأستاذ مرسي...».

قالت عفاف في تواضع مصطنع:

«مش للدرجة دي يعنٍي، كلهاً حاجات بالصدفة، أنا بس اللي نبيهة حبتين».

«أيوه ما شاء الله، ما فيش حاجة تعدي عليكي، علشان كده استغربت إنك ما علقتيش على كلمة علا، عمومًا، تصبحي على خير».

أنهت منار المكالمة بعد أن اطمأنت أنها زرعت بذرة الفضول والتحدي لدى عفاف، ثم تركت عوامل النفس البشرية تقوم بالباقي...



وفي الصباح كانت المفاجأة!

ما إن دلفت منار إلى حجرتها بالوزارة حتى اقتحمتها عليها عفاف؛ تأكدت من إغلاق الباب جيدًا قبل أن تهيل عليها سيلًا عارمًا من الأخبار والمعلومات.

أخبرتها أن علا بالأساس قالت إنها أمضت ليلة الثلاثاء مع أولادها في المنزل.

ولأن (الفيسبوك) في عالم عفاف يكشف عن الكثير، سهرت تدقق في حساب علا، وحسابات كل من يمت لها بصلةٍ بحثًا عن طرف خيط حتى وجدته!

والدة علا كانت قد نشرت في تلك الليلة صورة لها مع أبناء علا على (الفيسبوك) وكتبت:

«قاعدين أنا وأحفادي نتفرج على فيلم نيمو وناكل فشار بيتي على ما مامتهم ترجع، ربنا يخليهم ليا».

فقامت عفاف بمراجعة جدول الأفلام، واكتشفت أن ذلك الفيلم كان يُعرض بالفعل في ذات الليلة التي قُتل فيها زميلهم هاني.

لهثت منار وهي تستوعب كلام عفاف:

«بس لو هي علا فعلا، أكيد كانت هتركز في حاجة زي كده وتخلي مامتها تشيل الصورة من ع الأكاونت بتاعها».

«ما اللي ما تعرفيهوش إن علا ما ينفعش تشوف الصورة علشان هي عاملة لمامتها بلوك من ساعة الثورة، كانت مامتها ساعتها بتحط بوستات مستفزة الصراحة، فأكيد بسبب البلوك، علا ما تعرفش حاجة عن الصورة».

«طب نعمل إيه دلوقت؟».

«نجيب علا ونواجهها».

ترددت منار، ثم حسمت أمرها قائلةً:

«ما فيش داعي نواجهها ونعمل مشكلة في الشغل، أنا هاكلم نسرين وهي تشوف المحامي».

التمعت نظرة الإثارة في عيني عفاف وهي تقولُ في لهفةٍ:
«طب إيه رأيك أكلم مامتها وأدحلبها في الكلام؟».

همَّت منار بالمواقفة، ثم شعرت أن استدراج والدة زميلتهما بهذا الشكل ربما يكون غير لائق.

«ما فيش داعي يا عفاف، علشان برضه ممكن تشيل الصورة وكده، خلينا نشوف المحامي هيقول إيه».

ظهر الإحباط على وجه عفاف وأومأت برأسها وخرجت، بينما أدركت منار أن شهية عفاف للإثارة لن يكون إخمادها سهلًا.

29

الكدابين

لم تكد تمضي بضع دقائق حتى ظهرت عفاف تقول لاهثةً:

«مش هتصدقي مامة علا قالت إيه؟»

«إنت كلمتيها برضه! ليه كده؟».

نحَّت عفاف اعتراض منار بحركةٍ من يدها قائلةً:

«اللي حصل حصل، خلينا في المهم، تخيلي مامتها قالتلي إيه! إن علا يومها كانت سهرانة في الشغل، وإن الحمد لله إنها روحت قبل الجريمة ما تحصل على طول. علا بقى ما كانتش سهرانة يومها، أينعم أنا كنت واخدة إذن، بس سألت سيد واتأكدت».

احتارت منار في مشاعرها، لم تتفجَّر السعادة بداخلها كما توقعت، وإنما غزاها شعور بالشفقة تجاه علا.

«كلمي الدكتورة نسرين بقى وفرحيها».

أمسكت منار بهاتفها وخرجت من مكتبها نحو الشرفة، وطلبت رقم نسرين.



تلقَّت نسرين مكالمة منار في طريقها لزيارة هاجر، حاملة الهمَّ أن تلتقيها بلا أي جديدٍ.

أخبار منار كانت بمثابة طوق الإنقاذ، فأشرق وجه نسرين وتلقَّت هاجر بين أحضانها مستبشرةً:

«عندي ليكي مفاجأة».

«وأنا كمان، أنا فكرت في كل الزملاء، ولقيت إن أكتر واحدة علاقتها كانت غريبة ومش منطقية هي علا...».

«سبحان الله، ده بالضبط اللي أنا جاية أقولهولك، علا طلعت بتكدب، ما كانتش في بيتها ولا حاجة ليلة الحادثة، أنا هاكلم المحامي وإن شاء الله بكرة تبقي بتتغدي معانا».

«يااااا رب، قلبي كان حاسس والله إن الفرج قريب، ربنا يخليكي ليه».

نادى الأمين بانتهاء الزيارة فناولت نسرين هاجر كيسًا بلاستيكيا به بعض الأغراض وذهبت مسرعة.

دلفت هاجر إلى غرفة الحجز مشرقة الوجه لأول مرة منذ أن تم احتجازها، ميَّزت أمنية البشارة على وجهها:

«أيوه يا عم شكلها فُرجت».

وقبل أن ترد هاجر سمعتا صوت تكة معدنية، أذنت بتوقف الشفاط عن العمل.



أبلغت نسرين المحامي بما عرفته عن علا، وبشكوك هاجر أيضًا، ولم تنس أن تسأله:

«ما فيش أخبار عن تقرير الطب الشرعي، الجلد اللي كان تحت ضوافر المجني عليه؟»

صمت المحامي، تصاعد القلق في قلب نسرين، قال لها بصوتٍ محايدٍ:

«للأسف العينة مفقودة!».

وقع قلب نسرين، ولكن قبل أن ترد، استدرك قائلًا:

«ما تقلقيش، الموضوع ده بيحصل وبنقدِّم شكوى، وكتير الحاجة بتتلقي، ولو ما اتلقتش مين عارف، يمكن يكون في مصلحة هاجر إن الدليل ده ضاع».

لم تحب نسرين لهجة المحامي.

أوليس مقتنعًا ببراءة هاجر؟

أصابها هذا الاحتمال بغصة، إن لم يكن مقتنعًا فكيف سيثبت براءتها؟

لم تفصح نسرين عن مشاعرها، بيد أن المحامي قال وكأنه يقرأ أفكارها:

«مش مهم رأيي، المهم الأدلة، وشغلتي أتأكد إن ما فيش أدلة تدين هاجر، وده اللي بأحاول أعمله».

أنهت نسرين المكالمة والشكوك تعصف برأسها، كيف يضيع دليل مهم كهذا، هي مقتنعة ببراءة ابنة خالتها، لذا كانت بانتظار التقرير بفارغ الصبر لكي تشير عينة الجلد للجاني.

ولكن إن لم يكن المحامي مقتنعًا مثلها، هل يكون قد رشا العاملين في مصلحة الطب الشرعي لإخفاء الدليل؟

ترددت في مخيِّلتها عبارته:

«وشغلتي أتأكد إن مافيش أدلة تدين هاجر».

وإن كان كذلك، فماذا سيفعل في القضيب الذي انطبعت عليه بصماتها؟ هل سيخفيه هو الآخر؟ فات أوان ذلك بالتأكيد.

أم أن الجاني الحقيقي هو شخص مسنود؟ نجح بواسطة علاقاته في إتلاف دليل إدانته الوحيد وإخفائه؟

باحت نسرين بشكوكها لطلعت الذي حدَّق فيها غير مصدق..

«معقولة تشكي إن أونكل حمدي يعمل حاجة زي دي؟».

شعرت بخجلٍ طفيفٍ إثر كلام زوجها، ولكنها قالت بنزقٍ:

«إنت محسسني إن هو اللي مربينا مثلاً؟ ده إحنا ما شفناهوش في حياتنا مرتين تلاتة على بعض، ومعروف إن المحامين ليهم طرقهم الملتوية».

«لاااا، إنت بقيتي صعبة قوي، وعلى فكرة...».

قطع كلامه رنين هاتف نسرين، ألقت نظرة خاطفة على شاشته عازمة على تجاهل المتصل، ولكنها ميزت الاسم فردَّت مسرعة:

«أيوه يا منار، خير؟».

«....»

«مال صوتك؟».

«....»

«معقولة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، همه الناس كلهم بقوا كدابين فجأة كده ليه؟».

أنهت المكالمة غاضبةً، فنظر إليها طلعت مستفسرًا، قالت والدموع تتصارع كي تفر من عينيها:

«مش علا... اتضح أنها كانت مفهمة مامتها وجوزها إنها سهرانة ف الشغل، لكن في الحقيقة كانت ف حفلة في ساقية الصاوي».

«منار عرفت منين؟».

«عفاف، كمِّلت نخورة على الفيسبوك، لقيت صورة لعلا في الحفلة ومعمولها تاج في نفس اليوم.. قال إيه، كدبت علشان جوزها دايمًا بيتخانق معاها إنها بتسيب الولاد كتير وتخرج مع صاحباتها، فقالتله إنها هتسهر ف الشغل علشان تشتري دماغها».

رنَّ هاتفها مجددًا وظهر عليه اسم المحامي، أغلقت الرنة، ثم أغلقت الهاتف بأسره ورمته بعيدًا قائلة:

«هيقولي نفس الكلام، أنا زهقت زهقت، كل الناس طلعوا كدابين، والوحيدة اللي بتقول الحق هي اللي محبوسة».

«همه دول البشر يا نسرين، همه دول البشر.. بس ما تيأسيش، أنا متفائل جدا».

حدجته بنظرة غيظ من وسط دموعها، فضحك قائلا:

«أيوه، إنت مش واخدة بالك من حاجة، كل ما كدبة بتتكشف، كل ما دايرة الاتهام بتضيق».

انتبهت نسرين لما يقصده فبدأت تمسح دموعها..

«عندك حق، إحنا دلوقت اتأكدنا إن لا مرسي ولا عاطف ولا علا همه اللي عملوها».

«ولا فتحي».

«أيوه صح، كده يبقى فاضل مين؟».

«إنت أدرى، هاسيبك تعدي غنمك وأروح أشوف شغلي».

تحمَّست نسرين من جديد وهي تكتب الأسماء الباقية في ورقةٍ صغيرةٍ وتتأملها، ثم وضعت دائرة كبيرة حول أسماء رجلين وامرأة قائلةً لنفسها في تحدٍّ:

«القاتل مش هيخرج عن التلاتة دول، أما نشوف!».

30

تلك التكة!

اغرورقت عينا هاجر بالدموع إثر سُحب الدخان المتكاثفة في سماء الغرفة، بينما ظهرت بوادر أزمة تنفس حادة على أمنية.

كان الشفاط هو شريان الحياة في الغرفة، والموصِّل الوحيد للهواء، وبعد مرور عدة ساعات على توقُّفه، أصبحت الغرفة ترزح تحت ضبابٍ ثقيلٍ من أنفاس النزيلات المُشبعة بدخان السجائر التي لا تكادُ تنطفئ.

قاموا بالدق على الباب بعزم ما لديهن من قوةٍ بالتناوب حتى سأل الأمين في غلظةٍ:

«إيييه بتخبطوا لييييه؟ ككخابط ف نافوخكم».

«الشفاااااط»، صرخن في صوتٍ واحدٍ متوسِّلات..

«طيب طيب، لما الزيارات تبقى تخلص نبقى نشغله».

لم تفهم هاجر الرابط بين الزيارات والشفاط، لكنها قبلت العبارة في قلة حيلة، آملة أن تنتهي الزيارات سريعًا قبل أن تختنق.

ازداد وجه أمنية شحوبًا، وبدأت تغزوه زرقة مُخيفة، وهي تقول لهاجر من بين أنفاسها المُتسارعة:

«البخاااخة، طلعيلي البخاخة من الكيس!».

فتشت هاجر حقيبة زميلتها البلاستيكية فلم تجد أية بخاخات، أسقط في يدها، بينما علَّقت السيدة الخمسينية قائلةً:

«أكيد خدوها قبل ما تدخل، الأدوية ممنوعة هنا».

هتفت هاجر في حنقٍ:

«والسجاير يعني اللي مسموحة!».

مطَّت السيدة شفتيها ولم ترد.

بللت هاجر منديلًا ووضعته على أنف أمنية وفمها، وظلت تمسح بآخر على جبهتها وصدغيها آملةً في التخفيف عنها، حين سمعت:

«تك!».

كان أجمل صوت سمعته في حياتها:

(تكة) الشفاط.

عاد الشفاط للعمل، وظلت هاجر تذكر بعدها لسنوات، أن أسعد لحظةٍ مرَّت عليها كانت، لحظة سماعها تلك (التكة)..

31

مزيد من الأسرار

دخلت عبير غرفة المكتب حاملةً ابنتها الصغيرة، ملفوفة في بطانية، واتجهت من فورها نحو منار بوجهٍ شاحبٍ قائلةً:

«أرجوكي يا مدام منار، عايزة أكلم الدكتورة نسرين، صابرين تعبانة قوي، ومدام هاجر كانت بتكلمهالي على طول».

«ألف سلامة عليها، ما لها؟».

تهاوت عبير بابنتها على أحد المقاعد قائلة:

«لونها مخطوف، وعينيها مصفرة، والبول بتاعها لمؤاخذة لون الشاي».

«يبقى عندها الصفرا»، هتفت منار.

لحق عطية بعبير وهو يقول:

«والله ده اللي قلتهولها»، ثم مد يديه يحمل ابنته قائلًا لعبير في رفقٍ:

«عنك، دراعك ما بيستحملش الشيل!».

بينما سألتها منار:

«هي كلت حاجة من بره؟».

«طعمية».

«ما يمكن كانت ملوثة».

«يعني أعمل إيه دلوقت؟».

«استني هاروح أكلم نسرين وأرجعلك».

خرجت منار مسرعةً بينما لفت نظر سيد تجمعهم في الغرفة فانضم إليهم بدوره.

عادت منار لتُخبر عبير:

«الدكتورة بتقولك اطلعيلها على القصر دلوقت، هي هناك، وبتقول لازم تحاليل، لو صفرا مش هتبقى من الطعمية بتاعة إمبارح، الصفرا بتاخدلها بتاع أسبوعين على بال ما تبان ع الواحد».

وضع عطية كفه على كتف زوجته قائلًا:

«يلا بينا نلحق الدكتورة».

فردَّت عليه عبير بجفاء قائلةً:

«خليك إنت وأنا هاتصرف»، ثم شكرت منار وحملت ابنتها وخرجت.

علَّق سيد متهكمًا:

«إيييه إنت فاكر علشان انزاح من سكتك هتديلك ريق ولا إيه!».

امتقع وجه عطية وبدا وكأنه سيقول شيئًا، ثم تهدلت كتفاه أكثر وخرج.

تبادل عاطف ومنار النظرات في عدم فهم، فسأل عاطف:

«تقصد إيه باللي قلته لعطية؟».

«يا عم سيبك أنا مش فاضي، لازم أمشي دلوقت، إنت عارف عندي مأمورية».

طقطق عاطف بلسانه قائلًا:

«أيوه يا عم الجو خليلك وهتهيص مأموريات».

فتح سيد كفه في وجه عاطف قائلًا:

«خمسة وخميسة»، ثم خرج ضاحكًا.

زفرت منار قائلةً في يأسٍ:

«الوزارة كلها بقت أسرار، وأنا الوحيدة منكم اللي مش فاهمة حاجة، الأول المدفون، وبعدين كلام سيد، هو فيه إيه؟».

اقترب عاطف من مكتبها قائلًا بصوتٍ خافتٍ:

«أنا عرفت المدفون من عفاف، وهاقولك، بس إوعديني ما تجيبيش سيرة!».



اتسعت عينا منار غير مصدقةٍ ما سمعت، فأسرعت إلى الخارج تبلغ به نسرين عبر الهاتف، إلا أن نسرين ردَّت بنبرةٍ محبطةٍ:

«إيه يعني مرسي كان بيتفرج على مقاطع مش كويسة في الشغل وهاني كان عارف، إنت عايزة تقولي إن مرسي قتل هاني علشان ما يفضحوش؟».

«ما عرفش، على الأقل ده بيفسر ليه مرسي كان بيدي المأموريات كلها لهاني وبيوافقله على أي أجازات أو أذون، ممكن يكون هاني ابتزه بحاجة أكبر فاضطر مرسي يسكته».

«ماشي، كلام جميل، ده في حالة إن مرسي ما عندوش حجة غياب، إنما ده كان بيعمل عملية في المستشفى يا منار، عارفة لو أقوال شهود، أقولك كدابين، إنما المستشفى صعب تكدب».

«ما كانش مستشفى على فكرة، أنا عرفت إنه مركز خاص لجراحات التخسيس، ما تنخوري وراه، يمكن تطلع سمعته وحشة ولا حاجة؟ وخدوا فلوس علشان يتستروا على مرسي؟».

«والله ممكن، أنا مش عارفة ليه ما بقاش عندي أمل نلاقي حاجة، بس عندك حق، هانخور وأقولك».



عادت منار للغرفة فوجدت عاطف يتكلم على الهاتف الأرضي قائلا:

«لا والله الأستاذ سيد سافر في مأمورية».

«........».

«طيب لحظة هاحولك عليها».

ضغط بضعة أزرار ثم أغلق السماعة قائلا لمنار:

«دي سمر أخت المرحوم، كانت عايزة الأستاذ سيد، ولما عرفت إنه مسافر طلبت تكلم عفاف».

لم تكد تمر بضع دقائق حتى دخلت عليهم عفاف قائلة في لهفةٍ:

«اتفتح اتفتح».

«هو إيه؟».

«موبايل هاني، الواد يوسف ابن سمر كان عامله تتبع باين ولا مش عارفة إيه من ع اللابتوب وقالها إنه اتفتح».

«وإنت مالك متحمسة قوي كده؟».

«نفسي ومنى عيني أعرف مين الندل اللي سرقني».

«آه علشان كده... طب وإيه يعني اتفتح، هنوصل إزاي للي خده؟ وأكيد اللي خده هيفرمطه ولا عمرك هتشوفي حاجة من عليه».

عضَّت عفاف على شفتها في غيظ وقد تعالى صوت تنفسها مع كلمات عاطف..

«إنت بتستفزني يا عاطف؟ ماشي، هنشوف!».

ثم خرجت وصفقت الباب من ورائها، بينما تبعتها ضحكات عاطف المتشفية.

32

شاي؟

مدَّت سامية يدها في شوال الأرز المركون بالشرفة، وأخرجت منه الهاتف قائلة:

«لازمن أفتحه وأعرف إيه الموضوع، غيابه عن البيت كتر وشكله رجع يلعب بديله».

قلَّبت الهاتف بين يديها باحثة عن الزر الذي يفتحه..

«بتعملي إيه يا ماما؟».

«خضتني يا واد يا زياد».

«بابا لو عرف هيدبحنا كلنا».

مدَّت إليه الهاتف قائلة:

«لو عرف، هادبحك أنا قبله».

ثم أردفت تُحاول كبح لهفتها:

«خد يا واد افتحه وإنت ساكت!».

ضغط زياد بثقةٍ على أحد الأزرار ضغطة طويلة، فأضاءت الشاشة، وانعكس ضوؤها على عيني الأم التي وقفت تنتظر في لهفةٍ ما سيسفر عنه تفتيش الجهاز.

✤

بعد مرور أقل من أربع وعشرين ساعة، كانت الأدوار قد بُدِّلت في الحجز.

هاجر طريحة بين ذراعي أمنية، تُعاني من الحُمى، وتهذي بكلماتٍ غير مفهومة، بينما أمنية تحاول تخفيف حرارتها بواسطة المناديل المبللة مع منشفة صغيرة بللتها بقليل من ماء الزجاجة المعدنية الأخيرة.

باحت هاجر في هذيانها بعباراتٍ غير مترابطة، ميزت منها أمنية القليل:

«حبيبة... حبيبتي... زينة... تعالي لماما...».

«يا رب سامحني يا رب، يا رب اغفرلي ذنبي وخطيئتي».

أضاءت عبارتها الأخيرة لمبة حمراء في عقل أمنية، وتساءلت:

خطيئتها! ترى ماذا فعلت؟

«زعلان مني؟ ما تزعلش يا رب كان غصب عني».

استمر هذيان هاجر، وتوالت الأسئلة على ذهن أمنية كالمطرقة:

ما الذي فعلته؟ هل قتلت زميلها؟

يا لها من كاذبةٍ بارعةٍ استطاعت أن تخدع الجميع ببراءتها.

«سامحني يااااا رب».

نظرت أمنية إلى وجه هاجر المحتقن وعينيها الغائبتين لبرهةٍ متحيرة، ثم تراجعت عن أفكارها، مؤنبةً نفسها على ظنها السيئ فيمن لا حول لها ولا قوة، وعكفت على تبديل المناديل التي جفَّت بأخرى مُبللة.



بعد مرور عدة ساعات، بدأت حرارة هاجر تهدأ جراء (الكمادات)، وكفَّ لسانها عن الهذيان، فتنفست أمنية الصعداء.

اعتدلت هاجر في جلستها، فبدأت أمنية تسقيها قليلا من الماء مع قطعة من البسكويت المملح التي مضغتها بصعوبةٍ لجفاف حلقها.

«حد عايز شاي؟».

هتف بها الأمين من على باب الحجز...

شاي!

هبطت عليهن الكلمة وكأنها نداء من الجنة، فأخذن يُحصين الراغبات حتى طلبن منه الشاي لعشرين نزيلة.

استغربت هاجر أن الأخريات لم يطلبن! من ذا التي ترفض شايا ساخنا في هذا البرد وهذه الرطوبة؟

خرج الأمين وصفق الباب فلم تنتفض لأول مرة، كانت غارقة في أحلام الشاي اللذيذ، الكفيل برشفة منه بمداواة حنجرتها المجروحة، وذهاب كل البأس عنها.

كانت ترى بعيني خيالها موجات البِّخار المتصاعدة من المشروب المنتظر، وتشمُّ رائحته الثقيلة المسكِّرة، وتجد مرارته الحلوة على لسانها، وتكاد شعر بتنبيهاته لمراكز المخ لديها.

كانت تفتقد بشدة الشاي بلبن الذي اعتادت شربه كل صباح، نعمة لم تمتن لها يومًا في خضمِّ تروس الحياة الهائلة، تحوَّلت الآن إلى حلم بعيد المنال.

«يا ترى هيجيبوه في كوبايات إزاز ولا بلاستيك؟»، سألت نفسها في سعادةٍ خفيةٍ.

طرق الأمين الباب...

توقَّعت هاجر أن يمد إليهن صينية معدنية عليها أكواب الشاي، وكانت فقط تتساءل عن كُنه تلك الأكواب.

بيد أن الأمين مدَّ إليهن كيسين من البلاستيك بهما سائل مُعتم شديد السواد، استلمتهما إحدى النزيلات، فمدت كل من الراغبات نحوها ما اتفق: كوب بلاستيكي، نصف زجاجة مياه مقطوعة، طبق صغير.

ثقبت حاملة الشاي الأكياس عدة ثقوب، لكي توسطن تحت (السرسوب) النازل من كل ثقب منها إحدى النزيلات كوبها حتى يمتلئ، فتحتلَّ (السرسوب) أخرى. حتى فرغت الأكياس، ونفد الشاي.

الشاي!

ذلك السائل الأسود البارد المريب، هو الشاي؟

تبادلت هي وأمنية نظرات اليائس، وأعادتا رأسيهما إلى الجدار في صمت.

33

اللابتوب

وضعت عفاف صينية الشاي والكعك على المائدة الصغيرة التي تتوسط غرفة المعيشة، ووزَّعت على أسرتها الأكواب الزجاجية التي يتصاعد منها البخار.

قالت لزوجها:

«شفت يا منصور، مش سمر أخت المرحوم هاني اتصلت النهاردة الصبح في الشغل، وقالت إن ابنها لقى رسالة جاتله على لابتوب المرحوم إن موبايله اتفتح، ياما نفسي أشوف الفيديوهات اللي عليه، وأعرف مين اللي سرقني، بس إزاااااي؟».

هتف ابنها الأوسط:

«طب ما طالما اللابتوب موجود ما تدخلوا على الآي كلاود!».

رقص الأمل في قلب عفاف إثر كلمات ابنها التي لم تفهمها، ولكنها فوجئت بزوجها يضع كوب الشاي على المنضدة بعنفٍ، قائلا لابنه في حنقٍ:

«ميت مرة أقولك ما تتحشرش ف كلامنا».

فقالت عفاف مهدئةً:

«سيبه يا منصور، المرة دي معلش، ها يا حبيبي قول!».

بدَّل ابنها نظراته بين أمه وأبيه حتى لمح نظرة الرضوخ في عيني الأب فانطلق:

«بصي يا ماما، هو الموبايل واللابتوب بتوع عمو هاني ماركة آبل؟».

«باين كده يا حبيبي، الأستاذ سيد كان بيقول إن اللابتوب يجيله بـ٥٠ ألف جنيه».

«يبقى غالبا آبل، أي حاجة كانت على موبايل عمو هاني هتبقى موجودة على برنامج كده اسمه آي كلاود تقدروا تدخلوله من على اللابتوب».

«يا فرج الله... يعني إنت تقدر تدخل على الكيلاود ده وتجيبلي الحاجة؟».

«طبعًا يا ماما».

«خد كيك يا حبيب ماما، خد كيك!».



في المساء، جرت المكالمة اليومية المُعتادة بين نسرين ومنار، ليناقشا ما لديهما من أخبار جديدة، إلا أنه لم يكن هناك جديد يُذكر، خاصة بعد أن راجعت نسرين مركز جراحات السمنة، كان ملكًا لأحد زملائها الأطباء المشهود لهم بالأمانة، وكانت من

الصدف الغريبة أن يؤكد لها أنه هو بنفسه من أجرى العملية لمرسي، قاضيًا على أية شكوك لديها.

وكالعادة، وفي نهاية المكالمة، استحثت نسرين منار أن تتذكر أية عبارة شاردة أو واردة.

«إنت فاكر علشان مشي من سكتك هتعبَّرك؟»، قالتها منار في شرود أثار فضول نسرين:

«مش فاهمة حاجة».

«حد قال حاجة زي كده لعطية النهاردة، لما عبير ردَّت عليه وحش».

«عطية!».

«ما له؟».

«إحنا إزاي عمرنا ما فكَّرنا في عطية!».

«وهو عطية إيه علاقته بالموضوع؟».

«كان فين ليلة الحادثة؟».

«عطية كان في بيتهم وهو اللي فتح لعبير ليلتها».

«يعني ما فيش غير شهادتهم لبعض؟»، قالتها نسرين بخفوتٍ محدِّثة نفسها.

«اقفلي يا منار هافكر شوية كده وأكلمك»، وأغلقت الهاتف دونما أن تنتظر ردًا.

أمسكت بالقلم والورقة وظلت ترسم عليها أشكالا سيريالية وهي تفكر، ثم اتسعت عيناها فجأةً، ثم انتفضت، ثم انطلقت نحو باب البيت، ثم عادت بضع خطوات إلى المرآة التي تزين المدخل، أحكمت فيها ربطة طرحتها بيد، وبالأخرى هاتفت منار قائلة:

«البسي حالا هاعدي عليكي!».

«هنروح فين؟».

«مفيش وقت للكلام، لازم أعمل شوية اتصالات، هاحكيلك ف العربية، تلتاية وأكون عندك إن شاء الله».

34

عطية!

دلفت منار إلى السيارة قائلةً بنبرةٍ لاهثةٍ:

«خرجت بالعافية، محمود كان قافش عليه».

«معلش، إن شاء الله يفك»، قالتها نسرين بآليةٍ وعيناها معلقتان بمرآة السيارة التي تنطلق بسرعة أعلى من المعتاد.

«إحنا رايحين فين؟».

«نزور عطية وعبير».

«إيه ده؟ ليه؟».

«الحجَّة اللي هنقولها إننا عايزين نطَّمن على صابرين».

«والحقيقة؟».

«أنا شاكة في عطية».

«إيه العلاقة بس؟».

«ركزي معايا يا منار... من كلامكم إن هاني ده كان بتاع بنات، ما فيش واحدة عدت من تحت إيده، ومن كلام هاجر إن عبير

دي كانت مزة، إيه اللي يمنع إن هاني كان بيتحرَّش بعبير، فعطية اكتشف وقتله؟».

«لا، ما أظنش يا نسرين، هاني ما يعملش كده، لو كان بيعاكس واحدة كان هيبقى برضاها، مش تحرش والجو ده».

«أصل بصي، دلوقت إيه اللي نزِّل هاني الجراج؟ طالما ما كانش فيه علاقة بينه وبين هاجر زي ما إنت بتأكدي؟ يبقى الاحتمال الوحيد إنه نزل ورا عبير، صح؟ ولما نزل ما شافهاش علشان كانت في الحمَّام، فافتكرها مشيت، ولقى هاجر قدَّامه، وكان مُستثار، فحاول يحضنها زي ما قالوا في التحقيق».

صمتت منار تُحاول هضم منطق نسرين، كانت الفكرة شديدة الغرابة عليها، إلا أن سبب نزول هاني إلى الجراج هو النقطة الوحيدة التي تستحق التفكير.

«يعني عطية كان ف الجراج وقتها؟ بس ده روَّح يومها ف معاد المرواح عادي».

«مين عارف، يمكن كان بيشك في مراته مع هاني، ولما لقاها هتسهر وعرف إن هاني برضه سهران عمل نفسه مروَّح ورجع تاني على الوزارة، ونزل ورا مراته الجراج يراقبها، وعلى كلام هاجر في التحقيق، إنها لما خرجت من المبنى، هاني كان لسه في الجراج. ممكن تكون عبير رجعتله، وعطية شافهم مع بعض، ما قدرش يمسك نفسه فضربه بالقضيب موِّته، وساعتها اتفق هو وعبير يشهدوا

لبعض بحيث يطلعوا منها، أكيد عبير هتوافق علشان على الأقل يربوا بنتهم، مش بتقولي كلِّمته وِحش قدامكم؟».

«أيوه بس...»، قالتها منار مترددةً وقد حيَّرتها أفكار نسرين المُتشابكة المُتسارعة!

«ما بسش ولا حاجة، آهي زيارتنا ليهم هتبقى تجربة، يا صابت يا خابت، أنا قلبي بيقولي إننا قربنا».

«يااا رب يا نسرين، طب هنعمل إيه دلوقتي؟».

«سيبيلي أنا الحوار، بس عايزاكي تسجلي ع الموبايل بتاعك، مين عارف يمكن يحالفنا الحظ ويقع بلسانه ولا حاجة».

قطع حوارهما صوت امرأة أجنبية تقول بنبرةٍ آليةٍ:

«يور ديستنيشن إز أون ذا رايت».

أوقفت نسرين السيارة على رأس الحارة الضيقة حيث أشار التطبيق قائلةً: «يلا بينا!».

«إنت جبتي العنوان منين صحيح؟».

«كلمتهم في المستشفى، جابولي العنوان من الورق اللي عبير ملته الصبح وإحنا بنعمل لصابرين التحاليل».

ابتسمت منار تتذكر عبارة هاجر: نسرين التي لا يقف أمامها شيء...

وانطلقتا معًا نحو العقار المُتواضع.



«يا ألف ميت أهلا وسهلا... اتفضلوا اتفضلوا خطوة عزيزة».

قالها عطية بترحابٍ، بينما طلَّ عليهما من وراء كتفه المحدودب وجهُ عبير الشاحب ترمقهما بعينين مأخوذتين.

دلفتا إلى الشقة وجلستا على الأريكة حيث أشار عطية،

قالت نسرين: «إحنا جايين نطمن على صابرين».

أخفى عطية الدهشة التي ظهرت على وجهه بسرعةٍ قائلا:

«والله فيكم الواجب، تشربوا إيه؟ اعمليلنا شاي بسرعة يا عبير!».

تحرَّكت عبير بآليةٍ تجاه المطبخ وهي تسترق النظر إليهما.

«ها، صابرين عاملة إيه دلوقت؟».

«هي التحاليل طلعت؟».

«بكرة الصبح إن شاء الله، وأول ما تطلع هاكلم منار على طول تطمنكم».

«هي صابرين بقت أحسن الحمد لله ووشها رد شوية عن الصبح، البركة ف حضرتك يا دكتورة وفي المحاليل اللي علقتيهالها».

«أنا ما عملتش حاجة».

ساد الصمت، ونظرت منار إلى نسرين بانتظار ما ستقوله، بيد أن إرادة نسرين وكأنها قد تبخرت، فلم تدر ما تقول!

كيف لم ترتب الكلام في عقلها قبل أن تأتي؟ لقد وثقت في قدرتها المُعتادة على الارتجال، ولكن الآن، وأمام نظرات عطية الطيبة وظهره المحني، تلجَّم لسانها ولم تجد ما تقوله.

لاحظت منار ترددها فقالت في محاولةٍ منها لتبديد الصمت:

«حلوة قوي صورتكم دي».

وأشارت إلى صورة فوتوغرافية كبيرة معلقة على الحائط خلف عطية في إطار بني مترب، كان في الصورة مبتسمًا في سعادة، وبجواره عبير، ترتدي شالا برتقاليا جميلا، مطرزا بورود فضية، وتحمل بين يديها ابنتها الوليدة، وكانت عبير تبدو ممتلئة قليلا في الصورة..

«دي كانت بعد ولادة صابرين على طول، اتولدت بدري يجي شهر، وفضلت ف الحضّانة أسبوع، وإحنا مروحين بيها ع البيت الفرحة ما كانتش سايعاني، فحِلِفت لنعدي ونتصور».

«جميلة فعلا»، علّقت نسرين في شرود، فحدجتها منار بنظرةٍ حادةٍ بينما هتف عطية:

«الشاااااي يا عبير».

«كنت عايزة أسأل حضرتك على حاجة يا عم عطية».

«أؤمري يا دكتورة!».

«يوم الحادثة، يوم ما اتقتل هاني».

بهتت ابتسامة عطية، بينما اهتزت الأكواب الزجاجية على الصينية التي اقتربت بها عبير.

«أيوه؟».

«إنت عارف، إحنا نفسنا نلاقي أي حد شاف حاجة ليلتها علشان خاطر هاجر بنت خالتي تخرج».

وضعت عبير الصينية أمامهم وتبادلت نظرة صامتة مع زوجها، ثم قالت:

«عن إذنكم هاطمن على صابرين»، وتوارت خلف الستارة التي تفصل الغرفة حيث يجلسون عن باقي الشقة.

عادت نسرين تسأل:

«ليلتها ما شفتش حد غريب في الجراج؟».

«في الجراج إزاي أنا ما كنتش هناك ليلتها».

رمت نسرين ببطاقتها الأخيرة قائلةً:

«بس أنا عرفت من المحامي إن الكاميرات صوَّرتك وإنت داخل الوزارة تاني، وصورتك كمان وإنت نازل الجراج، وإنت خارج منه».

كانت تلك كذبة، ولكنها نجحت في تحريك المياه الراكدة.

فزع عطية، وهتف بصوتٍ مرتجفٍ:

«وكتاب الله ما حصل، ده أنا كنت بايت مع أمي في المستشفى يومها والممرضات في القصر يشهدوا».

انعقد لسان نسرين على إثر المفاجأة وأخذت تنظر حولها في ارتباك، التقت نظرتها بنظرة تلك الواقفة وراء الستارة، وقد أزاحتها بكفها قليلًا تراقب المشهد.

نظرة عبير...

تلك النظرة!



ساد الصمتُ حينًا، وتقاطعت النظرات، حتى تدخلت منار لتحتوي الموقف قائلةً:

«معلش يا عم عطية، الدكتورة طول النهار في المستشفى وأعصابها تعبانة، هي ما تقصدش حاجة، إحنا عايزين نطمن على هاجر زي ما إنت عارف».

قال عطية في صوتٍ واجفٍ:

«ربنا يطمنكم».

ثم وقف، في إشارةٍ لانتهاء الزيارة.



نزلت نسرين الدرج منكسة الرأس تؤنب نفسها..

كيف أخطأت التمييز إلى هذا الحد؟

كيف سمحت لتلك الفكرة الشاذة أن تقتحم رأسها وتتمدد فيه!

ما ذنب الرجل البريء أن تُخيفه بادعائها الكاذب عن الكاميرات، وتتهمه أمام زوجته بهذا الشكل.

حاولت منار التخفيف عنها قائلةً في رفقٍ:

«معلش يا نسرين، كان قصدك خير».

دخلت نسرين السيارة وأدارتها قائلةً في يأسٍ:

«أنا غلطانة من ساسي لراسي، وآسفة إني حطيتك في موقف زي ده».

«ولا يهمك، عطية طيب وابن حلال، أكيد هيقدر الظروف».

«إزاي أعمل كده؟ إزاي حكمي على الأمور يكون غبي بالشكل ده؟».

«بالعكس مش غبي ولا حاجة، سبب نزول هاني الجراج يحير فعلا. بكرة الصبح فكري على رواقة في احتمالات تانية، مش قلتي قلبك حاسس إننا قربنا؟».

تساءلت نسرين إن كانت منار تسخر منها، فنظرت إليها لتجدها تنظر إليها مصدقة.

حرَّكت رأسها في صمتٍ يائسٍ، وظلت صامتة حتى أوصلت منار، وحتى دلفت إلى بيتها، وحتى وصلت إلى فراشها، حيث أطلقت لدموعها العنان.

35

العيون الزرقاء

في صباح اليوم التالي، تفاجأت منار بزيارة سمر أخت هاني لهم في المكتب حيث وقفت عفاف تتبادل الحديث مع منار.

كانت سمر تحمل في حرصٍ كيسًا بلاستيكيا ملفوفًا بإحكام وقد وضعت شالها الأزرق على كتفيها.

رحَّبت بها عفاف وأخذت منها الكيس في لهفةٍ مفسِّرة لمنار:

«أصل الواد ابني قالي إنه ممكن يجيب الفيديوهات إياها من ع اللابتوب، فكلمت سمر بالليل وقلتلها، كتر ألف خيرها أصرت تجيبه بنفسها».

ثم نظرت إلى سمر قائلةً في امتنانٍ:

«كتر ألف خيرك يا حبيبتي، تشربي إيه؟».

ابتسمت سمر في خجلٍ فحلفت عليها عفاف أن تجلس حتى تأتيها بمشروبٍ ما وخرجت.

جلست سمر على المقعد أمام منار التي حاولت أن تتجاذب معها أطراف الحديث..

«شيك قوي الشال بتاعك ده يا سمر ما شاء الله، جايباه منين؟».

مسحت سمر بأطراف أصابعها دمعة غير مرئيةٍ، وقالت:

«ده هاني الله يرحمه جابهولي من تركيا».

همست منار:

«من تركيا! غريبة، حاسة إني شفت واحد شبهه قريب».

«ده يستحيل، حتى بصي مكتوب عليه إيه»، ورفعت طرف الشال وقربت الرقاقة البيضاء الصغيرة المشبوكة فيه كي تقرأ منار المكتوب:

«٥٠٪ حرير و٥٠٪ صوف، ومعمول في تركيا فعلا، ما شاء الله».

دلفت عفاف تحمل الأكواب بيديها، فسألتها منار:

«جايبة الحاجة بنفسك ليه؟ أومال فين عطية؟».

«ما جاش».

«غريبة»، قالتها منار وهي تغالب شعورها بتأنيب الضمير، بالتأكيد لم يأت بسبب ما حدث منهما بالأمس، لا بد أن نفسه مكسورة ولا يستطيع مواجهتها.

قطع عاطف أفكارها قائلا لعفاف:

«هو إنت هتاخدي اللابتوب ولا إيه يا عفاف؟».

«أيوه، مش قلتلك الواد ابني هيجيبلي من عليه الفيديوهات».

«وهترجعيه تاني؟ إوعي تضربي عليه لحسن سيد ياكلك».

«لا والله، ده حتى لو كان أستاذ سيد هنا كان طلَّع هو الفيديوهات قدامنا وخلَّصنا بدل ما أشيله على قلبي رايح جاي».

ثم نظرت لسمر، واستدركت:

«وبدل ما نتعب سمر يعني مشوارين، أقولك يا سمر، أنا هاجيبهولك لحد عندك إن شاء الله».

تركتهم منار وخرجت إلى الشرفة تتفقد هاتفها، فوجدت محاولة من نسرين، للاتصال بها:

«منار، اديني عبير ضروري، التحاليل طلعت وعايزة أفهمها الوضع».

ذهبت منار للبحث عن عبير فلم تجدها.

«نسرين، لا عبير ولا عطية جم النهاردة».

«لا حول ولا قوة إلا بالله، كله بسببي، لازم أروحلهم البيت أعتذرلهم بنفسي وأسلمهم نتيجة التحاليل».

«لو ينفع تستني شوية، أنا ممكن آخد إذن وآجي معاكي».

«يا ريت، خلاص هاعدي عليكي على الساعة ١ كده إن شاء الله».



دلفت منار إلى سيارة نسرين وانطلقتا باتجاه بيت عطية.

أبصرت منار بملف التحاليل، فسألت نسرين:

«هي صابرين طلع عندها إيه؟».

«أنيميا الفول».

«يعني إيه؟».

«ده مرض، بيسبب حساسية شديدة لما المريض ياكل الفول أو مشتقاته أو أي بقوليات، حتى فول الصويا بيعمل نفس المشكلة».

«سبحان الله، هاني كان كده، ما كانش بياكل فول ولا طعمية ولا مكسرات، ولا حتى البرجر بتاع المحلات».

«هاني!».

صمتت نسرين للحظةٍ، ثم أضافت بصوتٍ أجش:

«إنت عارفة يا منار إن المرض ده وراثي؟».

«وراثي!!».

وفجأة اقتحمت ذاكرة نسرين عينان زرقاوان صغيرتان...

عينا صابرين وهي تنظر إليها في براءةٍ، ثم تتسع وتبدأ بالبكاء، مع وخزة الإبرة حينما كانت الممرضة تثبت لها (الكانولا) في رسغها الصغير.

عينا الطفلة الزرقاوان العميقتان والدوائر المعتمة المميزة التي تؤطر زرقتها.

أوقفت نسرين السيارة بشكلٍ مفاجئ أفزع منار، واستدعى شتائم نابية من السائقين حولها، إلا أنها نظرت لمنار في إثارةٍ قائلةً:

«أنا فهمت كل حاجة، فهمت كل حاجة، ياما إنت كريم يا رب».

36

اعتراف!

دلَّكت هاجر أطرافها في محاولةٍ يائسةٍ لتبديد تيبُّسها وصقيعها.

نظرت إليها السيدة الخمسينية قائلةً:

«لحقتي؟ أومال بعد كام شهر هتعملي إيه؟».

أرتج السؤال على هاجر...

«كام شهر!».

وهل ستقضي هنا «كام شهر؟!».

في هذه الأوضاع المزرية؟

متكوِّمة على بلاطتها الوحيدة... «كام شهر!».

لاحظت السيدة شحوب وجه هاجر، فقالت:

«زعَّلتك ولا إيه؟ معلش، أنا زيك أهه، مستنية أتنقل سجن القناطر، بيقولوا هناك واسع وكل واحدة سرير، وممكن نتمشى كل يوم ساعة ف الشمس».

الشمس!

وكيف تبدو الشمس؟

قاطعت أفكارها إحدى النزيلات وهي تشير لها ولأمنية قائلةً:

«بأقولكم إيه يا ختي إنت وهي، شكلكم مطولين معانا، من بكرة هتخشوا في التنضيف، ما هو إحنا مش الخدامين اللي جايبهم لكم أبوكم».

ثم تغامزت مع أخرى وهي تضحك إزاء النزيلة الشرق آسيوية التي كانت في هذه اللحظة تجمع القمامة في الأكياس.

قالت أمنية في بساطةٍ:

«ما فيش مشكلة، أنا ممكن آخد دور في المسح، وإنت يا هاجر؟».

تجاهلت هاجر الموقف برمته، ومالت على السيدة الخمسينية تسألها في خفوتٍ:

«لو اعترفت بالجريمة، يودوني القناطر؟».

سمعتها أمنية، فقالت مُستنكرةً:

«إنت اتجننتي يا هاجر؟ تعترفي بجريمة ما عملتيهاش علشان مش قادرة تستحملي كام يوم ف الحجز».

«ومين قال إني ما عملتهاش»، ردَّت هاجر في شرودٍ.

«يعني إيه؟ إنت قتلتيه؟».

«تفرق؟».

«قصدك إيه؟».

«أنا عملت جريمة وعايزة أعترف بيها»، قالت هاجر...

ثم قامت فجأةً تحاول اجتياز الأجساد المتكومة للوصول إلى الباب الحديدي وهي تصرخ:

«أنا عايزة أعترررف، افتحووووولي، خرجووووني، أنا عندي اعترااااااف».

37

الشال!

نظرت منار في ذهولٍ إلى نسرين التي فجَّرت قنبلتها قائلةً:

«صابرين تبقى بنت هاني، مش بنت عطية!».

«إيه الكلام ده، أستغفر الله، إزاي تقولي كده؟».

«كل حاجة بتقول كده، ركزي وافتكري شكل البنت وشكل هاني، هتحسي بالشبه، نفس العيون بالمللي، وأنيميا الفول... ما خدتيش بالك لما عطية قال إن صابرين اتولدت بدري؟ طب مش بذمتك كلكم استغربتم لما عبير وافقت على عطية فجأة؟».

«أيوه فعلا»، ردت سمر مدهوشة، ثم استدركت قائلةً:

«بس عطية حلف إنه كان مع مامته طول الليل، وعنده شهود».

«ما هو مش عطية اللي قتل هاني».

«الله، أومال مين؟».

ازدردت نسرين ريقها وفجَّرت قنبلتها الثانية:

«عبير...».

«عبير!!! مش ممكن»، قالتها منار مذعورةً..

ثم شابها التردد وهي تفكر في عبير، وجهها الشاحب، وذبولها، وشكلها الذي اختلف تمامًا عن الصورة المعلَّقة... وعيناها بالأمس، تلك العينان اللتان كانتا تدوران في محجريهما كفأرٍ حبيسٍ..

الصورة المعلَّقة!

«الشال»، هتفت منار..

«شال إيه؟».

«الشال الحرير البرتقالي اللي كانت لابساه عبير في الصورة، نسخة من الشال اللي كانت لابساه سمر أخت المرحوم لما شفتها النهاردة في الشغل، هي قالت إن هاني جابهولها من تركيا».

«وجاب لعبير أخوه، هدية غالية ومميزة».

«وكان بيعطف على صابرين وبيحن عليها، وعبير كانت بتعامل عطية وحش، ومش بترضى تسيب البنت معاه!».

«مش بعيد هاني وعبير كانوا متفقين يتقابلوا ف أوضة أدوات النضافة اللي في الجراج، ولما نزل وما لقهاش، افتكرها مشيت فشاف هاجر وحاول يحضنها، عبير شافتهم واتجننت، استنت لما هاجر خرجت واتخانقت معاه وضربته بالقضيب فمات. ما تنسيش إن عبير ما عندهاش حد يشهد بوجودها في البيت بعد ما عطية غيَّر أقواله واعترف قدامنا بعضمة لسانه إنه كان بايت مع مامته في المستشفى!».

«أيوه صح، طب هنعمل إيه دلوقتي؟».

«هاكلم المحامي أحكيله ونطلع على بيتهم».



وقفت نسرين مع منار أمام باب الشقة المفتوح، تنظران إلى عطية الجالس على الأريكة، محدِّقا أمامه في ذهول، والدموع تتساقط من عينيه.

«خير يا عطية؟»، همست منار..

نظر لها عطية ذاهلا ولم يرد، بينما ظهرت من ورائها جارة بدينة قالت وهي تمصمص شفتيها:

«عبير، منها لله خدت البت وهربت».

«إيه!».

لم تأبه بهما السيدة البدينة، بل أزاحتهما بكفها قائلة:

«لمؤاخذة يا ست كده»..

واتجهت إلى عطية، وربتت على كتفه في حنان..

«ما تعملش ف نفسك كده يا خويه، والنبي ما كانت تستاهلك، وحبايبك قدام عينيك، تعالى يا خويه كل لك لقمة، ده أنا عاملة بامية بالضاني، لحمة مش ليّة والله، قوم قوم...».



انتظرت نسرين رد المحامي على كلامها، فقال بنبرةٍ هادئةٍ:

«الكلام اللي بتقوليه يا نسرين منطقي، بس ما فيش عليه أي دليل لسه، مش عايزك تعيشي على الأمل!».

«أنا عندي الدليل».

«خير؟».

«الكاميرات».

«الكاميرات ما أظهرتش عبير خالص».

«بالضبط يا عمو وهو ده الدليل، لو كانت عبير خرجت من المبنى كانت لازم هتظهر ف كاميرا من الكاميرات، لكنها ما ظهرتش خالص، يبقى ده معناه إيه؟ معناه إنها ما خرجتش من الوزارة، كانت مستخبية في الجراج، وقتلت هاني بعد ما هاجر خرجت، وغالبًا فضلت مستخبية لحد الصبح، ما تنساش إن جوزها كان بايت بره البيت وما يعرفش إذا كانت رجعت ولا لا».

«كلامك منطقي جدا يا نسرين، عمومًا النيابة أصدرت أمر بضبط وإحضار عبير لاستجوابها. أنا كمان بلغتهم إن الموبايل بتاع المجني عليه اتفتح، علشان يتتبعوه».

«أكيد عبير بتحاول تبيعه».

«هنعرف...».

38

منديل الحاوي

جلست منار على مقعدها في الوزارة تُحاول تمالك نفسها من الإثارة، بعد أن أوصتها نسرين بتكتم الأخبار الجديدة حتى يتم القبض على عبير.

سمعت عاطف يقول لسيد في خبثٍ:

«عفاف دي مجرمة، شكلها ضربت على اللابتوب».

«قصدك إيه؟».

«هو إنت ما تعرفش؟»، وانبرى عاطف يحكي لسيد مستجدات اللابتوب،

دخلت عليهم عفاف في تلك اللحظة فهتف عاطف:

«يا ريتني افتكرت مليون جنيه، كنت لسه بأقول عفاف ضربت على اللابتوب».

«لا والله، بس أنا لما رجعت البيت إمبارح لقيت الواد ابني بره، رجع بعد ما نمت، سيبتهوله، وطبعًا البيه لسه ما صحيش، كل شوية أكلمه يديني مغلق».

قال لها سيد: «وعلى إيه وجع الدماغ ده كله، هاتيه وأنا أطلعلك اللي إنت عايزاه!».

«أجيبه إزاي دلوقت، ما الواد نايم».

«تعالي معايا أوصلك البيت نجيبه ونيجي!».

احتارت عفاف في أمرها، فغمز لها عاطف قائلًا في لؤم:

«سيد مش مآمنلك، خايف لابنك يضرب على الجهاز».

رضخت لاقتراح سيد وقالت توصِّيهم:

«لو أستاذ مرسي سأل علينا إحنا رحنا مشوار سريع وراجعين، ساعة بالكتير إن شاء الله».



كانت نسرين مرابطة في مكتب المحامي منذ الصباح الباكر بانتظار الأخبار.

تفكَّرت في تسلسل الأحداث واحتارت في تفسيره، في حكمة القدير أن تقع بهذا الترتيب، كي تكشف سوءات الجميع...

وإلا فما الذي يعنيه تعاقب شكوكها عليهم جميعًا، وانكشاف كذبهم واحدًا تلو الآخر، وكأنها ممسكة بمنديل الحاوي، كلما سحبت واحدًا، ظهر آخر يليه!

وتساءلت... ترى، هل سيكون منديل عبير هو الأخير؟

أم ما زال في الجراب يا حاوي؟



بدأت الأخبار تأتي مع منتصف النهار حينما دخل عليها المحامي وعلى شفتيه لأول مرة، شبح ابتسامة انتصار.

بشَّرها قائلا:

«قبضوا على عبير، لقوها مستخبية ببنتها عند خالتها في بسيون، خدوها على القسم واستجوبوها».

كان المحامي يحكي لها في سرعةٍ كيف أنكرت عبير التهمة الموجهة إليها، وأصرَّت على أقوالها السابقة، مع الاعتراف بأن عطية زوجها لم يكن في البيت ليلتها، ولكنهما اتفقا أن يقولا ما قالا في التحقيق منعًا للسين والجيم.

كانت تُدافع عن نفسها بشراسةٍ متمسكة بعدم وجود أية أدلة مادية عليها.

قالت وهي تصرخ:

«إنتم مش لقيتوا بصماتها على القضيب؟ ما لكم وما ااالي!».

وقالت في استجداء: «ولا علشان هي بنت ناس وأنا غلبانة عايزين تلزقولي الجريمة وتخرجوها».

لم تتغير أقوال عبير على مدى ست ساعات من الاستجواب إلا حينما قال المحقق:

«عمومًا إحنا هنعمل للبنت تحليل DNA».

وما إن فهمت ماذا يعني هذا التحليل حتى انهارت عبير...



جاء اعتراف عبير التفصيلي كما توقعت نسرين...

كانت بالفعل على علاقة مع هاني قبل زواجها من عطية، وعندما اكتشفت حملها صارحها هاني بأن زواجه منها مستحيل، ونصحها بأن تتخلص من الجنين.

في البداية، رفضت عبير التخلص من الجنين وهدَّدت هاني بفضحه، إلا أنه اتهمها أنها من سعت إلى الحمل كي تورِّطه وتجبره على الزواج منها. وأخبرها أنها هي من ستتعرَّض إلى الفضيحة لأنه لن يصدقها أحد، ولم تكن تعلم هي وقتها أن هناك تحليلاً يُسمى DNA يمكنه أن يثبت بنوة الطفل لأبيه.

لذلك انصاعت عبير لهاني مرغمة وقررت الإجهاض.

في تلك الأثناء عرض عليها عطية الزواج على استحياء، لم يكن يشبه أحلامها في شيء، ولكنه كان بمثابة طوق النجاة الذي وجدت فيه الحل المؤقت لمشكلتها.

استمرت علاقة عبير بهاني بعد زواجها. ولم تكن تكف عن طلب الزواج منه على أن تخلع عطية، ولكن رفضه لها كان دائمًا، وقاطعًا، فاكتفت بالقرب منه في العمل وبلقاءاتهما القصيرة كل فترةٍ.

كان كثيرًا ما يُعطيها نقودًا من أجل الطفلة، ويحنو عليها ويُلاعبها، ويأتيها بهدايا عديدة من أسفاره، دونما التطرُّق لبنوَّتها، أو لتحمل أية مسئولية تجاهها، وكانت عبير راضية بالفتات.

ولكنها، وفي أسوأ كوابيسها، لم تتوقع أبدًا أنه قد يغوي أخرى، وأمام عينيها.

لذا، عندما شاهدته يحتضن هاجر في المرآب ويراودها عن نفسها، جنَّ جنونها.

واتخذت قرارها في لحظةٍ: إن لم يكن لها، فلن يكون لسواها.

انتظرت في ركنٍ مظلم تُراقبهما، وما إن خرجت هاجر حتى ظهرت عبير لهاني، ونشبتْ بينهما مشاجرة عنيفة، لطمها فيها على وجهها، فلم تشعر بنفسها إلا وقد استلت القضيب من على الأرض وضربته به عدة ضربات على رأسه أفقدته التوازن وأوقعته أرضًا.

أصابها الذعر لمرآه ممدَّدًا ورأسه ينزف بغزارة، فتركته غارقًا في دمائه وولَّت هاربة.

كانت تأمل أنه لم يمت، وكانت متأكدة أنه قد حرَّك نظره صوبها وهي تبتعد، إلا أنها عندما علمت في الصباح أنه مات، أدركت أنها توهَّمت نظراته، وتأكدت أنها قتلته.

اعترفت عبير في أقوالها أنها رأت هاجر وهي تلف، وهي تستند إلى القضيب، مما يفسر وجود بصمات هاجر على القضيب، ويتطابق مع روايتها، بينما لم تستطع تفسير عدم وجود بصماتها هي شخصيًّا. ولكن النيابة لم تقف عند تلك النقطة كثيرًا بانتظار كلمة البحث الجنائي الأخيرة بعد تمثيل الجريمة، وكذلك بانتظار ظهور نتيجة تقرير الطب الشرعي.



ولم تكن نسرين تأبه لأية حقائق، سوى أن هذا الاعتراف يعني...

براءة هاجر.

39

انحدار

وصلت عفاف منزلها فلم تجد ابنها ولا اللابتوب، اتصلت به فردَّ عليها قائلًا:

«أيوه يا ماما، اللابتوب طلع مش مشحون، أنا رايح لواحد صاحبي دلوقت عنده شاحن، لما أطلع الفيديوهات هاكلمك- تيت... تيت- معلش يا ماما موبايلي هيقطع شحن.. سلام».

عادت عفاف لسيد الذي كان ينتظرها بالسيارة وأخبرته بما حدث.

رأت في نظراته اتهامًا، فقالت مدافعةً:

«والله العظيم ما هناخد اللابتوب ده، حتى لو إنت اتحايلت عليًّا، آديني حلفتلك، ارتحت بقى».

نظر إليها، وقال متوعدًا:

«عارفة لو كان رايح يبيعه...».

ثم استطرد بعد تفكيرٍ:

«أقولك، كلميه نروحله مطرح ما هو موجود وناخده منه!».

حاولت الاتصال بابنها، ثم قالت:

«يوووه نسيت، ده كان قايلي إن موبايله هيقطع شحن».

عضَّ سيد على شفته السفلى في غيظ، وحدج عفاف بنظرةٍ يملؤها شك لم يستطع إخفاءه. ثم نظر أمامه مستسلمًا وأدار السيارة عائدًا بعفاف إلى الوزارة.

❖

«هاجر حسن عفيفي... إخلاء سبيل بكفالة على ذمة القضية».

خرجت هاجر من بوابة القسم، لا تُصدق أنها في الشارع، وسط الناس.

ولا تعي كيف حدث هذا!

مفاصلها التي احتاجت إلى تزييت أجبرتها على المشي ببطء حينما كانت هي تريد الجري، وجفونها انسدلت في استسلام أمام شلال أشعة الشمس المنهمر، بينما كانت تودُّ لو تفتح حدقتيها على اتساعهما كي تحتويا النور كله.

تلقَّفتها نسرين بين ذراعيها، بحثت هاجر عن المزيد، فلم تجد...

«حبيبة وزينة فين؟».

«هاجيبهملك أكيد، بس ما حبيتش يجوا هنا، ولا إيه؟».

نظرت هاجر حولها وانكمشت في صمتٍ.

«وعلشان كمان لما يشوفوكي تكوني رديتي شوية».

ازدردت هاجر ريقها واستجابت لنسرين التي فتحت لها باب السيارة ودفعتها في رفق للركوب.

ظلت هاجر صامتة، واحترمت نسرين صمتها، حتى سألت:

«إحنا رايحين فين؟».

«مفاجأة».

دقَّ قلبُ هاجر في سرعةٍ:

«البنات جرالهم حاجة؟».

حدجتها نسرين بنظرة استغراب، وهي تقول:

«إيه يا هاجر، بأقولك مفاجأة، والله البنات كويسين جدا، وبصي على الكنبة ورا، جبتلك هدايا علشان تديهالهم لما تشوفيهم، مش المفروض إنك كنتي مسافرة؟».

تأكدت هاجر بالتفاتةٍ سريعةٍ من وجود الهدايا، ثم سألت نسرين مجددًا:

«أومال إحنا رايحين فين؟».

«حجزتلك أوضة في فندق، أكيد محتاجة تقعدي مع نفسك شوية قبل ما تشوفي إبراهيم والبنات، وأعصابك كمان محتاجة تهدا».

«أنا عايزة أروَّح، عايزة أنام ف سريري!».

ضحكت نسرين قائلةً:

«ما لك بقيتي فقرية كده ليه؟ لو عرفتي حجزالك فين هتاخديني بالحضن».

لم تتكلم هاجر، فأردفت نسرين:

«حجزالك في مينا هاوس، الأوضة إياها اللي ف الدور الاتناشر اللي صاحبتك حكتلك عنها، وكان نفسك إبراهيم يحجز لكم ليلة فيها».

ظهر شبح ابتسامة على وجه هاجر..

«أيوه كده روَّقي»، قالتها نسرين وهي تقف بالسيارة أمام بوابة الفندق العريق.



فتحت هاجر باب شرفة الحجرة ليطالعها المنظر الذي طالما زارته بزورقها الوردي في أحلامها...

مرجة خضراء فسيحة محاطة بالأشجار العالية، ينحدر منها سفح مخضرٌّ كله، وتطل على الأهرامات والصحراء المترامية حولها.

خرجت حافية إلى المرجة التي تظللها الأشجار العتيقة الوارفة، جلبت الرائحة الطازجة للعشب المجزوز حديثًا حسًّا من الانتعاش والأمل إلى روحها، بينما داعبت أطراف العشب المدببة باطن قدميها في رفق أيقظ فيها الإحساس.

جلست على المرجة الندية وأسندت ظهرها إلى جذع إحدى الأشجار، تُراقب السفح المُنحدر.

تأملت انحدار الهضبة التي جلست عليها، والذي يكافئ اثني عشر دورًا نزولًا، وشعرت بأنها تُماثل حياتها تمامًا...

انحدار!

40

إفك

لم تشعر هاجر بنسرين التي جلست بجوارها على العشب حتى وضعت كفها على كتفها، ومدت لها يدها بشطيرةٍ.

«ما ليش نِفس».

«ما هو مش هينفع ترجعي بيتك ولا تشوفي البنات إلا لما صحتك تردّ شوية، اتفضلي كلي!».

أخذت هاجر الشطيرة على مضضٍ وقضمت منها قضمة صغيرة أخذت تلوكها في فمها شاردةً.

«ما لك يا هاجر؟ كأنك مش مبسوطة إنك خرجتي!».

.....

«أنا عارفة إنها مش تجربة سهلة، بس...».

«بس أكيد اتعلمت منها كتير، وأكيد حياتي بعد مش هتبقى زي حياتي قبل».

«إبراهيم مش كده؟».

أجابت السؤال دمعة طلَّت من ركن عينها في استحياء.

«الموقف ما كانش سهل عليه يا هاجر، حطِّي نفسك مكانه!».

«ده ما زارنيش ولا مرة».

قالتها هاجر بأسى، ثم أردفت:

«واضح إن دي النهاية لعلاقتنا».

«نهاية إيه يا ست إنت؟ دي البداية، بداية جديدة ليكم سوا، تفهموا احتياجات بعض أكتر، وتحسوا ببعض أكتر».

«إزاي يصدَّق عليه كلام زي ده؟ هو ما يعرفنيش؟ ده إحنا عِشرة عمر من أيام المدرسة، والمفروض عارف أخلاقي كويس قوي».

«وسيدنا محمد؟ ما كانش يعرف أخلاق السيدة عائشة؟».

لم تفهم هاجر العلاقة، فأكملت نسرين:

«والشيطان؟ اللي أعظم انتصار عنده التفريق بين الزوجين، شكلك مش مقدرة إمكانياته»، قالتها نسرين ضاحكة، فحدجتها هاجر بنظرة ألم.

«نتكلم جد؟ النبي نفسه صلى الله عليه وسلم لما حصلت حادثة الإفك كان بيتقطع من جواه بالذات لما الوحي اتأخر عليه، لدرجة إن علي بن أبي طالب قاله علشان يريحه: الدنيا ما ضاقتش عليها والستات كتير، والرسول عليه الصلاة والسلام ساعتها قال للسيدة عائشة بعد شهر كامل قعدته عند أهلها: إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله».

اتسعت عينا هاجر وهي تسألها:

«يعني ما كانش متأكد من براءتها؟».

«إنت شايفة إيه؟ الموضوع ده مش سهل على أي راجل يا هاجر، حطي النقطة دي في دماغك، وزي ما ربنا برأ السيدة عائشة من فوق سبع سماوات، برَّأك إنت كمان الحمد لله».

ازدردت هاجر ريقها وترددت قبل أن تقول:

«الحمد لله».

«يبقى زي ما السيدة عائشة سامحت، إنت كمان لازم تسامحي و....».

قطع حوارهما رنين هاتف نسرين من داخل الغرفة، فقامت وهي تقول لهاجر:

«تعالي ندخل، الجو برَّد!».

أطاعتها هاجر..

«ده المحامي»، قالت نسرين...

تعلَّقت عينا هاجر بنسرين التي استمعت للمحامي في صمتٍ.. امتقع ووجهها تدريجيا لما يقوله حتى هتفت:

«يعني إيه؟ مش عبير اللي قتلته؟».

تعالى صوتُ ارتطام مكتوم..

نظرت نسرين لتجدَ...

جسد هاجر ممددًا على الأرض بلا حراكٍ.



41

هناك شيءٌ ما!

تركت نسرين الهاتف من يدها وجرت نحو جسد هاجر المُمدد تُحاول إفاقتها بتربيتات سريعة على وجنتيها. لم تفق هاجر، فأحضرت نسرين عطرها وبلَّلت به منديلًا ظلَّت تُحركه أمام أنفها وتدلك به صدغيها حتى استفاقت.

ساعدتها حتى وصلت إلى الفراش، وتمددت فيه، ثم قامت بشد الغطاء عليها وإطفاء الأنوار تاركة ضوءًا وحيدًا خافتًا.

تمتمت هاجر متسائلة وهي تفتح عينيها في صعوبةٍ:

«إيه اللي حصل؟».

«ولا حاجة، ارتاحي إنت والصباح رباح!».

حاولت هاجر مجادلتها إلا أن الصداع العنيف الذي لفَّ رأسها أجبرها على إغلاق جفونها والانزلاق في نوم عميقٍ.

اطمأنت نسرين لانتظام أنفاس هاجر في النوم، فأعادت الاتصال بالمحامي:

«معلش ممكن حضرتك تفهمني بالراحة!».

«لما أي حد بيعترف بجريمة، النيابة بتعمل حاجة اسمها تمثيل للجريمة، بيقارنوه بالمعلومات والأدلة اللي عندهم، علشان يتأكدوا إن الاعتراف صحيح، لأن ساعات فيه ناس بتاخد فلوس علشان تعترف على نفسها وتخرَّج الجاني الحقيقي».

ثم أردف بتمهُّل:

«إنت عارفة طبعًا إن فيه ناس كتير عندها استعداد تدفع فلوس علشان ينقذوا اللي بيحبوهم من السجن، أو... أو حبل المشنقة».

هل اختلفت لهجة المحامي؟ أم يهيأ لها؟

«إنت زرتي عبير في بيتها صح؟».

«أيوه، ده إيه علاقته بأي حاجة؟».

«أنا بأسأل بس».

«أنا ما فهمتش برضه إيه اللي حصل في تمثيل الجريمة؟».

«عبير مثِّلت الجريمة زي ما حكت بالضبط، كله كان ماشي تمام لحد ما سحبت القضيب وضربت المجني عليه، الضربات بتاعة عبير كانت ضعيفة جدا، لا يمكن تتسبب في قتل، ومع الفحص، ثبت إن عندها ضعف في الأربطة.. مستحيل تكون هي اللي قتلته».

«إزاي يعني؟ أنا برضه مش فاهمة حاجة».

«الطب الشرعي أثبت إن فيه خبطات بالقضيب أحدثت جروح سطحية، سببت نزيف وارتجاج خفيف، بس مش هي السبب في القتل، فيه ضربة بعدهم كانت قوية جدا هي اللي السبب في القتل، والضربة دي مستحيل علميا تكون عبير هي اللي عملتها».

«يعني؟».

«فيه قاتل غير عبير».

«وده له أي علاقة بينا؟».

تردد المحامي قبل أن يقول في خفوتٍ:

«النيابة عايزة تستجوب هاجر تاني، عندهم شكوك و...».

قاطعته نسرين صارخةً:

«شكوك إيه تاني.. حرام عليكم!».

ثم استرقت النظرات نحو وجه هاجر النائم وقد ارتسمت عليه ملامح الألم والحزن فأخفضت صوتها، وأردفت في يأسٍ:

«البنت منهارة نفسيًّا ومش حمل أي حاجة جديدة».

حاول المحامي امتصاص غضبها، قائلًا:

«دي مجرد إجراءات، لكنها ضرورية، فيه نظرية بتقول إن هاجر رجعت تاني بعد عبير ما خرجت، وضربت هاني الضربة القاتلة. خلي بالك إن البصمات اللي على طرف القضيب هي بتاعة هاجر، ما فيش أي بصمات تانية. أنا شخصيا مش مقتنع، لكن موضوع البصمات ده محير طبعًا. أنا مش هاخبي عليكي، النيابة برضه شاكة إنكم تكونوا دفعتم فلوس لعبير علشان تعترف على نفسها وتخرَّج هاجر».

«إيه الجنان ده؟».

عقَّب المحامي قائلًا بحذر:

«أنا عارف إنكم لو هتعملوا حاجة زي كده هتعرفوني، ولا إيه؟».

«إحنا لا يمكن يخطر على بالنا نعمل حاجة زي كده أصلًا».

«ولا إبراهيم؟».

«ولا إبراهيم طبعًا».

«طيب، أنا هأحاول ألاقي تفسير لموضوع البصمات ده».

أنهت نسرين المكالمة منهكة القوى، ترزح تحت أحمال قلة الحيلة والإحباط.

خرجت إلى المرجة السابحة في الظلام عدا بعض الأنوار الخافتة، وجلست على العشب تُفكر.

البصمات...

أمر مُحير بالفعل.. قلبته يمينًا ويسارًا فلم تجد له أي تفسير مقنع!

زفرت يائسةً، ونظرت في هاتفها متفقدة الوقت وقد بلغ منها التوتر مبلغه، ماذا ستقول لهاجر عندما تصحو وكيف ستبلغها الأخبار؟!

قررت بث بعض الاطمئنان في قلبها، ففتحت تطبيق القرآن من على هاتفها وبدأت تقرأ.

تسللت السكينة إلى قلبها رويدًا رويدًا وهي تنساب مع الآيات، حتى تغيَّرت شاشة الهاتف فجأةً إلى اسم منار التي كانت تتصل.

«أيوه يا منار».

«موبايل هاجر مقفول ليه؟ عايزة أباركلها وأطمن عليها».

«أنا اللي قلتلها تقفله علشان تريح شوية، هي نايمة دلوقت».

«مال صوتك؟».

لم تستطع نسرين كتمان المستجدات عن منار فحكت لها عن مكالمة المحامي..

«أيوه فعلا، عبير كان عندها مشكلة ف إيدها وكانت بتعاني ف شيل بنتها».

«بصي يا منار، على الأقل إنت عارفة ومتأكدة إن إحنا ما دفعناش فلوس لعبير علشان تعترف على نفسها... مش معقولة يعني الاحتمال الوحيد إن هاجر اللي تكون عملتها».

سمعت نسرين صوت شهقة، نظرت فوجدت هاجر واقفة على باب الشرفة، وقد اتسعت عيناها وغطت بأصابع كفها فمها المفتوح.

أنهت نسرين المكالمة مع منار ودخلت إلى هاجر التي تكوَّمت على نفسها ممتقعة الوجه وقد غاضت الدماء من محياها.

اقتربت إليها نسرين بابتسامةٍ تُحاول بها بث الطمأنينة فيها..

إلا أن هاجر رأت خلف الابتسامة شيئًا آخر يتسلل في بطءٍ: الشك!

لم تستطع هاجر مجابهة تلك النظرة في عيني نسرين، فدفنت وجهها بين ركبتيها تبكي في حرقةٍ.

لم تفهم نسرين سر بكاء هاجر حتى سمعتها تقول:

«خلاص هأريَّحكم... أنا اللي عملتها... أنا اللي قتلته».

شحب وجه نسرين وأخذت تهز هاجر من كتفيها قائلةً:

«إيه اللي بتقوليه ده؟ إنت اتجننتي!».

«أنا اتجننت لما افتكرت إني ممكن أفلت بذنبي...».

«ذنب إيه يا هاجر؟ إنت بتخرفي؟»، سألتها نسرين مرتابة وهي تتحسس حرارة جبهتها، فأزاحت هاجر يدها بعنفٍ قائلةً:

«لا، مش بأخرف، أنا واعية كويس قوي للي بأقوله، وأكرملي أكفَّر عن ذنبي في الدنيا أحسن ما أقابل ربنا بيه في الآخرة».

أفرغتها كطلقات مدفع، ثم أجهشت بالبكاء.

نظرت إليها نسرين في حيرةٍ، كانت تشعر بتشويشٍ هائلٍ على أفكارها. تركت هاجر حتى تهدأ وخرجت إلى المرجة تفكِّر مجددًا.

ما الذي اعترى هاجر؟

أهي نوبة جنون؟ أم لحظة اعتراف؟

لا لا، ليست هاجر، لا يمكن أن تكون هاجر.

هي تعرفها جيدًا.

أم كانت تعرفها جيدًا؟

هل هي مقتنعة ببراءتها فعلا؟ أم هي (حافظ مش فاهم)؟ مصرَّة على براءتها حتى حين اعترفت هي؟

لا تريد أن تُصدق أن ابنة خالتها يمكن أن تقترف مثل هذا الأمر.

لِمَ لا؟

ألسنا كلنا معرَّضين للزَّلل؟ وهل يأمن أحدنا الفتنة؟

ترددت نسرين بين الرفض والقبول لما أعلنته هاجر، ثم أدركت أنها لا ترفض ما قالته ابنة خالتها بسبب عاطفتها تجاهها فحسب، وإنما بسبب قناعة داخلية غامضة تُحركها...

هناك شيءٌ ما!

تبًّا لتمثيل الجريمة الذي أوقعهم في هذه الورطة.

«قال تمثيل جريمة قال»، قالتها لنفسها في سخريةٍ حانقةٍ، ثم قررت في لحظةٍ مجنونةٍ أن تقوم هي بتمثيل الجريمة.

أخذت تتخيل هاجر تلف وتدور بتنورتها الواسعة كما حكت، فلفَّت مثلها حتى كادت أن تفقد توازنها فتشبثت بالسور الخشبي الذي يفصلها عن الحجرة المجاورة.

نظرت نسرين إلى حيث استقرَّت أصابعها للحظة، ثم اتسعت عيناها وهتفت:

«البصمات»...

42

اسم

ظهر رقم غير مُسجل على شاشة هاتف عفاف فردَّت عليه متوجسةً:

«مين؟».

«أنا وليد يا ماما».

«أومال دي نمرة مين؟».

«نمرة صاحبي، مش ده المهم دلوقت يا ماما، أنا شفت الفيديوهات، وعرفت مين اللي سرق الخاتم بتاعك، مش هتصدقي مين، مش هتصدقي!».

«قول يا واد وخلصني!».



قال محمود لمنار زوجته:

«طالما بتقولوا موبايله اتفتح، ما حدش فيكم حاول يرن عليه؟».

نظرت إليه منار في بلاهةٍ. كيف لم يخطر لهم هذا الخاطر؟ أم خطر لأحدهم وجرَّب دونًا عن الآخرين؟

بيدٍ مرتعشةٍ أمسكت هاتفها، وأخرجت نمرة هاني واتصلت عليها، ظلَّ الهاتف يرن طويلًا حتى أتاها الرد، وسمعت صوتًا نسائيًّا يقول:

«آلو أيوه يا منار، إنت منار اللي معاهم ف الشغل؟».

ميَّزت منار الصوت، فامتقع وجهها ووقع قلبها في قدميْها.

✖

أخذت نسرين تُغلق الخط على منار التي ألحَّت في الاتصال عليها، راغبة في تركيز أفكارها وتتبع الفكرة التي واتتها بخصوص البصمات.

أضاءت شاشة هاتفها برسالة (واتساب) من منار تقول:

«كلميني حالا.. مصيبة!».

كلمة «مصيبة» بخَّرت كل فكرة لدى نسرين وجعلتها تُسارع بالاتصال بمنار، التي بادرتها بنبرةٍ واجفةٍ:

«إحنا عرفنا مين اللي سرق الخاتم بتاع عفاف، بس إحنا واقعين في ورطة دلوقت!».

«إيه علاقة الخاتم بأي حاجة؟ أنا مش فاهمة».

«اسمعيني بس!».

صمتت نسرين تستمع لمنار وهي تسرد عليها ما عرفت، لحظات ثم أنهت معها المكالمة ذاهلة.

ولم تكد تضع هاتفها حتى اتصل بها المحامي قائلًا:

«عندي ليكي خبرين: الأول إن عبير بتقول إن اتخايلت بحد كان بيتحرك ف الجراج وقتها، النيابة طبعًا شاكة ف هاجر، بس الحمد لله مش عايزين يتسرعوا ويطلبوها إلا بعد ما يتأكدوا من الكاميرات، موضوع البصمات ده اللي قالقني».

«آه البصمات»، قالتها نسرين وهي تُحاول الاستفاقة من المفاجآت المتتالية.

«ما لها البصمات؟».

«عندي فكرة كده، حضرتك بتقول بصمات هاجر هي الوحيدة اللي لقوها على القضيب».

«أيوه، أينعم هي كانت شبه ممسوحة، بس كان فيه بصمة كافية للتعرُّف».

«كانت فين على القضيب».

«على الطرف التاني اللي ما عليهوش دم طبعًا».

«لو كانت على نهايته تمامًا بشكل رأسي، يبقى هاجر عندها حق، ده ساعة ما كانت بتحاول تمسك فيه لما جت تقع، وعبير أقرَّت إنها شافت هاجر وهي بتلف، وهي بتقع وبتحاول تسند ع القضيب، وساعتها يبقى هاجر بريئة، لو حد هيقتل حد بقضيب، مش هيمسكه من طرفه كده، هيمسكه من بعد الطرف بشوية علشان يحكم قبضته عليه، وساعتها البصمات هتبقى عمودية على جسم القضيب مش موازية له».

«عايزة تقولي إيه؟»

«عايزة أقول إن القاتل الحقيقي مسح بصماته من على القضيب مطرح ما كان ماسكه، وبالتالي مسح معاه بصمات عبير اللي مسكته قبله، لكنه ما مسحش الطرف بتاع القضيب، اللي عليه بصمات هاجر».

«والله فكرة مش بطالة أبدًا يا نسرين، برافو عليكي، على الأقل هتبرجلهم شوية، وتهز شكوكهم في هاجر، هاعمل اتصالاتي حالا».

«طب والخبر التاني؟».

«آه أيوه، لقوا عينة الجلد الحمد لله، وهيبدأوا يقارنوها بعينات كل اللي له علاقة بهاني من قريب أو بعيد، الموضوع ده هياخد وقت، أشخاص كتير إنت عارفة».

«أنا ممكن أدي حضرتك اسم تبدأوا بيه».

ولفظت نسرين الاسم، وقلبها وجِلٌ من الحقيقة الآتية.



«منار أنا مرعوبة؟ بأقولك مستني الواد تحت البيت».

«كلمي وليد قوليله ما يرجعش على البيت لحد ما نتصرف».

«موبايله لسه مقفول، كلمته ع النمرة اللي اتصل بيًّا منها، صاحبه قالي إنه نزل من عنده».

«أنا هاخلِّي محمود يتصرَّف، ما تقلقيش يا حبيبتي، إن شاء الله خير».

عقَّبت عفاف بصوتٍ مرتعشٍ:

«يااااا رب».

أوقف محمود زوج منار سيارته أسفل بيت عفاف ونزلت منها منار مسرعةً باتجاه باب العمارة، فظهر لها فجأةً زميلٌ لها..

«خير يا منار؟ بتجري ليه؟».

«أستاذ سيد؟».

«إيه اللي جايبك عند عفاف الساعة دي؟».

تلعثمت منار، فحوَّل أستاذ سيد نظراته إلى الذي ظهر من خلفها مرحبًا:

«سيادة العقيد محمود أهلًا أهلًا».

قام محمود بمعانقة سيد بحميمية استغربت لها منار، ثم أخذا يتجاذبان أطراف الحديث معًا فصعدت هي إلى عفاف.

بعد لحظاتٍ استأذن محمود لكي يُجري مكالمةً هاتفيةً ضروريةً، فسلَّم عليه سيد، وعاد إلى جوار سيارته منتظرًا.

تراقصت ابتسامة مستترة على شفتي محمود وهو يرسل رسالة نصية لزوجته مفادها: طمني عفاف، قمت بتعطيله لحين صدور إذن النيابة.



وقف الأستاذ سيد أمام المحقق يقول في بساطةٍ:

«الصراحة أيوه، مش هاكدب عليك يا حضرة الضابط، أنا اللي سرقت خاتم مدام عفاف، مرتبي على قده، ومسئولياتي كتير، والزملا ما شاء الله ربنا فاتحها عليهم، إيه يعني لما يساعدوا زميلهم من حين لآخر، ده كان مبدئي، كل كام شهر آخد حاجة من حد من الزملا، على سبيل السلف يعني، لحد ما الظروف تتحسن. غلطتي الوحيدة إني اتغابيت وخدت من عفاف، قطتها جمل، كان قلبي حاسس إنها هتوديني ف داهية، منها لله!».

س: وموبايل هاني اللي تتبعناه ولقيناه في بيتك؟

ج: أهه ده بقى أنا مظلوم فيه، هو نسيه في المكتب ليلة الحادثة، بيني وبينك قلت فرصة أساومه بيه، أصله شاف الفيديو بتاع الكاميرا وعرف إني أنا اللي خدت الخاتم، وأجبرني أرجعه لعفاف وكان بيهددني بالفيديو، هو أينعم كان جدع وما جابش سيرتي، بس كان هيفضل ساكت وكاسر عيني لحد إمتى؟ فلمَّا لقيته نسي الموبايل بتاعه قلت فرصة أمسح من عليه الفيديوهات أو على الأقل أساومه بيه.

س: يعني إنت ما نزلتش يومها الجراج؟

ج: أبدًا والله يا سعادة البيه، حتى شوفوا الكاميرات. وبعدين إيه اللي هينزلني الجراج؟ أنا باركن عربيتي بره زي باقي الموظفين.



جلست نسرين محتضنة هاجر بجوارها على الفراش تحتسيان المشروبات الدافئة بانتظار الأخبار.

اتصل بهما المحامي قائلًا:

«للأسف مصرّ إنه ما نزلش الجراج، وإنه لقى الموبايل في المكتب. وفعلًا الكاميرا بتاعة الباب الرئيسي مبيناه وهو خارج منه. الكاميرا اللي في الجراج مبينة خيال حد بيتحرك فعلًا، بس للأسف واضح إنه حد عارف أماكن الكاميرات كويس، كان بيتحرك بحذر شديد مش مبين منه حاجة».

«طب وبعدين».

«كل الاحتمالات مفتوحة، أنا كلمتهم ف نقطة البصمات اللي قلتيلي عليها، وطلبوا من الطب الشرعي تحديد موضع وزاوية البصمات بدقة على القضيب».

أنهت نسرين المكالمة وقالت لهاجر:

«المحامي بيقولك اطمني، مسألة وقت».

اغتصبت هاجر ابتسامةً يائسةً وهي تشيح بنظراتها.

قالت نسرين:

«أنا هاشغَّل كوكتيل أغاني هادية كده تروقنا شوية».

انسابت ألحان الرحباني تلفُّهما مبدِّدة وحشة الأجواء، وانسابت معها الذكريات والأفكار.

«نحنا والقمر جيراان...».

لماذا هذه الأغنية بالتحديد؟ اعتصر الحزن قلبها...

«عارف مواعيدنا... وتارك بقرميدنا... أجمل الألوان».

لم يكن حزنًا فقط، كانت مشاعر كثيرة تتصارع وتعلو وتهبط مع اللحن، وصوت فيروز الذي يحمل معه ألف سؤال بلا جواب.

هل أحبَّت هاني؟

هل أحبّت إبراهيم؟

ماذا يعني الحب أصلًا؟ وماذا فعل بها؟

ماذا تريد من المستقبل؟ وماذا ستفعل بالماضي؟

«وياما سهرنا معه... بالليل الهنا مع النهدااات».

انتفضت هاجر واقفة فانفلت منها مشروبها وأغرق ملاءة الفراش البيضاء.

نظرت نسرين لوجه هاجر الذاهل والمشروب الذي تناثر من حولها:

«فيه إيه يا هاجر؟».

حاولت هاجر الكلام:

«الأغنية، الرنة...».

«رنة إيه».

«الأغنية دي كانت رنة موبايل هاني الله يرحمه».

«أنا آسفة قوي»، قالتها نسرين وهي تُسارع بإيقاف الأغنية.

«لا لا مش ده قصدي، موبايل هاني رن ف الجراج، كان معاه ف الجراج، ورن، أنا سمعته، سمعت الأغنية».

لمعت عينا نسرين وهي تهتف:

«يعني سيد كداب، ما خدش الموبايل من المكتب».

«أيوه أيوه».

اتصلت نسرين بالمحامي تبلغه ملاحظة هاجر، ثم استقبلت منه مكالمة بعد عشر دقائق أبلغها فيها أنه بمراجعة أقوال عبير عن ليلة الحادث، أقرَّت بأن هاتف المجني عليه قد سقط منه عندما فقد اتزانه وأنها تركته بجواره وولَّت هاربةً.

«يعني كده سيد اللي عملها؟».

«إحنا بانتظار تقرير الطب الشرعي، بس اطمنوا، إن شاء الله خير».

«بس هو إيه اللي نزله الجراج؟».

ظلَّ سؤال نسرين معلقًا في الهواء بعد أن أغلق المحامي المكالمة.

نظرت نسرين إلى هاجر الشاردة، وقالت:

«سبحان الله، شهادة عبير دي هي السبب الأساسي في خروجك».

شردت هاجر وهي تتذكَّر نظرة عبير لها على باب حجرة التحقيق...

لم تكن نظرة اتهام كما ظنَّت، ولا نظرة شماتة.

كانت...

نظرة اعتذار.

43

النهاية

وقفت هاجر في مطبخها أمام الموقد تقلِّب الشِّعرية في السَّمن على أنغام مقطوعة غوايش. ابتسمت وهي تتذكَّر آخر مرة سمعت فيها المقطوعة، حينما كانت (الكلبشات) تُحيط بمعصميها... فحمدت الله.

شردت أفكارها تُفكر فيما حدث لها، ثم تسللت فكرة تبحث خلسةً عن زورق وردي تستقله. أعادت هاجر فكرتها تلك بحزمٍ إلى اللحظة الراهنة، وفتحت الفرن تطمئن على صينية البطاطس التي رشَّقت فيها قطع اللحم الملبس وغطت وجهها بشرائح الطماطم والفلفل الأخضر ثم زينته بمسحةٍ أخيرةٍ من السمن البلدي ورشة فلفل أسود. تشممت الرائحة الشهية المُتصاعدة منها في رضا، ثم أغلقت الفرن مسرعةً كي ترد على هاتفها.

كانت نسرين...

«مبروك يا ستي، الحمد لله أخيرًا وجهوا الاتهام رسمي لسيد. كان في الجراج فعلًا. عبير عدَّت عليهم ف الأوضة تسألهم إذا كانوا عايزين حاجة قبل ما يمشوا، وفهم من نظراتها هي وهاني إنهم هيتقابلوا، فنزل وراهم علشان يحاول يصوَّرهم في أي وضع ويساوم هاني بالصور دي قصاد الفيديو اللي معاه».

«بس أنا ما شفتوش خالص ليلتها؟».

«ما هو كان مستخبي بيراقب الوضع لحد ما شاف هاني اتضرب ووقع، وعبير سابته وهربت فافتكره مات. راح ياخد الموبايل من جنبه علشان يتخلص من الدليل اللي بيثبت إنه الحرامي، لكن هاني كان عايش، لما شاف سيد بيقرَّب منه استنجد بيه ومسك فيه، سيد حاول يخلص نفسه، هاني خدش إيده جامد وهو بيحاول يتشبث بيه، سيد مسك القضيب وضرب بيه هاني الضربة اللي قتلته. بعدها مسح بصماته، وأخد الموبايل وخباه ف بيته. مراته لما لقت الموبايل افتكرته رجع يسرق حاجة زمايله تاني، ولما بدأ يسافر مأموريات شكت أحسن يكون على علاقة بواحدة، علشان كده فتحت الموبايل».

«طب واللابتوب؟».

«أهه ده حكاية لوحده، سيد كان عارف إنهم يقدروا يدخلوا على الآي كلاود منه، بس ما كانش عايز يبين لهفته عليه أحسن حد يشك فيه، كان معتمد إن ما حدش هيخطر على باله الفكرة، لكن لما لقاهم بيفكروا كده حاول ياخد اللابتوب بحذر علشان ما

يتكشفش، لولا محمود جوز منار الله يباركله ما حدش عارف كان ممكن سيد يعمل إيه في وليد ابن عفاف».

«ربنا ستر الحمد لله، منار وجوزها طول عمرهم جدعان».

«آه والله، إنت كسبتي كتير من المحنة دي يا هاجر».

«واتعلمت كتير برضه».

«صحيح يا هاجر، إيه الذنب اللي كنتي عمالة تقولي لازم تكفري عنه ومش عايزة تقابلي ربنا بيه؟».

تشكَّلت أمام هاجر صورة هولوجرافية لزورق وردي صغير يتهادى، فبددتها بحركةٍ من ملعقة التقليب الخشبية التي بيدها، وتراقصت ابتسامة على شفتيها وهي تقول:

«ما تاخديش ف بالك، أعصابي كانت تعبانة شوية».

«طيب حمدًا لله على سلامتك يا حبيبتي».

أنهت هاجر المكالمة وهي تتساءل: أين عساه قد ذهب إبراهيم وقد خرج منذ الفجر؟



جفَّف إبراهيم عرقه برغم برودة الجو، إذ كان ملتحمًا مع الأجساد في طابورٍ طويلٍ لا يعرف له أولًا من آخر، انضم له بعد الفجر بقليلٍ أمام شباك التذاكر بدار الأوبرا، بعد أن فشل في الحجز (أون لاين).

بعد عدة ساعاتٍ من الوقوف، وصل أخيرًا إلى الكوة الصغيرة في زجاج الشباك، أشارت الموظفة إلى المقاعد الشاغرة وسألته بآليةٍ:

«كم تذكرة؟ اختار الأماكن!».

نظر إبراهيم إلى أماكن المقاعد وأخذ يُقارن موقعها بموقع خشبة المسرح في حيرةٍ، وعندما تأفف الواقف خلفه قالت الموظفة تستحثه:

«يلا يا أستاذ الطابور طويل».

«طب معلش ممكن تساعديني، هو أستاذ عمر خيرت بيبقى قاعد يمين المسرح ولا شماله؟».

«إيه السؤال الغريب ده؟».

«أصل المدام بتحب تشوف إيده وهو بيعزف».

لانت نبرة الموظفة وهي تحدجه بنظرةٍ ما، ثم سألت أخرى بالداخل:

«هو البيانو هيبقى على اليمين ولا الشمال؟».

«ع الشمال».

«على الشمال يا أستاذ»، قالتها الموظفة بنبرةٍ ناعمةٍ.

«يبقى هاخد الكرسيين دول، كام؟».

«١٥٠٠ جنيه».

ازدرد إبراهيم ريقه وهو يُخرج النقود من جيبه ويعدها قبل مناولتها للموظفة التي أخذتها منه وهي تتنهد هامسةً:

«رومانسي قوي».

ثم غمزت لزميلتها قائلةً:

«يا بختها بيه... جتنا نيلة ف حظنا الهباب!».

مضى إبراهيم حاملا التذكرتين وهو يُقاوم الصوت الذي علا في رأسه قائلًا:

«مش كانت عشوة سمك وجمبري أبرك!».

شُكر

إلى الجميلة رشا، التي استهلتني بعبارتها: أنا سيئة في الحكي والوصف، ثم أذهلتني بوصفها وحكيها، فكانت مشاهد عدة من الرواية بعينيها هي، وقلمي.

إلى المستشار الخلوق أ. طارق غنيم، الذي أمدَّني بالمعلومات القانونية للرواية.

إلى الجندي المجهول، م. أحمد مصطفى، زميل الكلية الذي يدعم رواياتي وينقدها بدقةٍ وحرفيةٍ مستخرجًا أية قطط فاطسة، كي تصلكم خالصة مخلصة.

إلى أحبائي المقربين، الذين لا يبخلون عليَّ بوقتهم لقراءة النسخة الأولى من الروايات، لإبداء الملاحظات المهمة المخلصة: دائمًا وأبدًا ابنة عمتي العزيزة شذى حسن، وابنة عمي الغالية مريم داود، وصديقتي الجميلة شيرين أبو النصر، والكاتبة المتميزة هبة هنداوي، وزوجي الحبيب إيهاب راتب...

لن أستطيع إيفاءكم حقكم مهما حاولت...

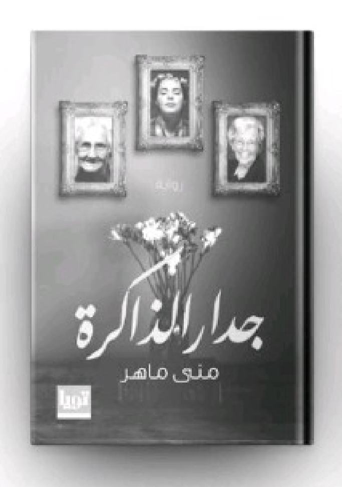
إلى شريف الليثي وتويا وكتيبتها العظيمة، شكرا لكل الدعم والتفاني.

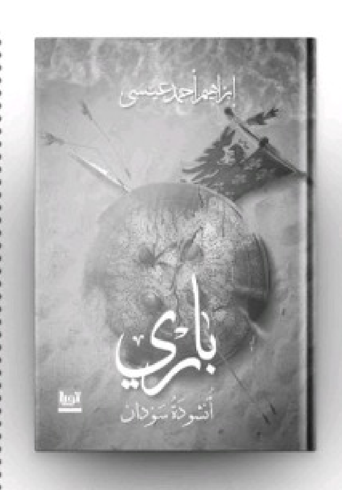
وأخيرًا...شكرًا لقرائي الأعزاء، لكم أكتب، وبتحقيق المتعة لكم أفرح...





المحتويات

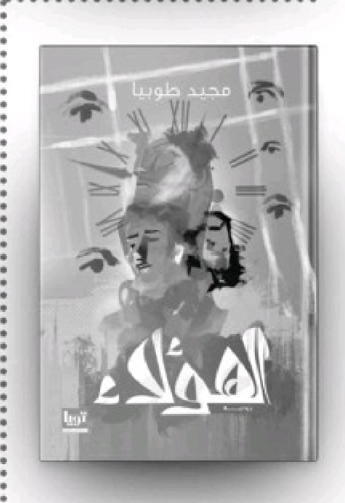

رواية
جدار الذاكرة
منى ماهر

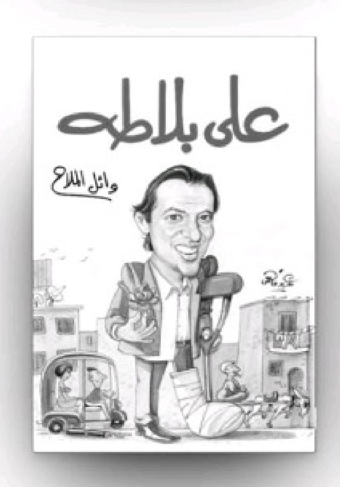

إبراهيم أحمد عيسى
باري
أنشودة سودان

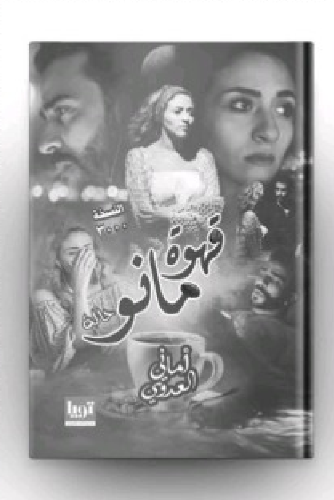

خلطة عمري
سارة الذهبي


فن التواصل بين
آدم و حواء
عمرو عادل


تويا
دار تويا للنشر والتوزيع


مجيد طوبيا
الهؤلاء


على بلاطه
وائل الملاح


قهوة مانو
أماني العدوي


رواية
366
أمير تاج السر